الجباه العالية

[الحلقه الثانية]

عن أعلام الفكر

بقلم

أنور الجندى

بسم الله الرحمن الرحيم

نلفت النظر إلى أن الجزء الأول من «الجباه العالية» لن يعاد طبعه وذلك بعد أن وزعت مواده على عدد من المؤلفات ولم يعد موجودا بصورته التى طبع بها لأول مرة عام ١٩٥٥ وقد دخلت مواده فى كتب :

رواد القوميه العربية ، وتراجم المعاصرين ، والجباه العاليه (ج ٢) .

١٩٥٨

مطبعة الرسالة

٣ شارع حمودة المقاول — عابدين

تصدير

هذه حلقة جديدة من كتاب « الجباه العاليه » التى أصدرته عام ١٩٥٦ وكان هذا الاسم قد استهوانى حقا عندما سمعته لأول مره . وحرصت على أن يكون عنوانا لمجموعة من الأعلام التى عنيت بدراستها . وقد قصرت هذا الجزء على أعلام الفكر والرأى من الفلاسفه والفقهاء والمؤرخين ، ذلك أنى اعتقد أن اسم [الجباه العاليه] عندما يسمع لأول وهلة ، إنما يعنى اعلام العقل وعباقرة الحجا والنظر البعيد ، وإننا حين نتصور فى اذهاننا الجاحظ أو المتنبى أو ابن خلدون إنما نرى من وراء الغيب هذه الجباه العالية العريضة التى تشف عن الكد والسهر والبحث و إقذاء العيون تحت أضواء المصابيح فى سبيل الكشف عن الحقيقة .

ومجموعة هذه الدراسات تعطى صورة للرجل العظيم فى صراعه مع الحياة وبنائه للعمل الكبير الذى يطلقون عليه اسم « الفكر » .

والكتاب فى مجموعه يعطى نموزجا للبطولة والعظمة فى صورة « الفكر » وقد حرصت على أن أعرض طائفة ضخمه من مفكرى العرب وأعلامهم ومؤرخيهم بعد أن قطعنا مرحلة طويلة فى سبيل العمل لإعزاز الفكرة العربية ودعمها ، وبعد أن دخلت القومية العربية فى أقوى مراحلها . وبعد أن تمثلت حقيقة واقعة ، وتدفق تيارها جباراً يهز النفس العربية ويجرف الرجعية ويحطم الاستعمار . وبعد أن اندفع ضياءاً باهراً يكشف الطريق أمام قيام الأمة العربية المتحدة .

ولقد كنا إلى عهد قريب نتنكر لعظمة تراثنا وننـدفع وراء بريق الثقافة

الغربية فلا نأخذ منها مع الاسف إلا قشورها . ذلك أن الاستعمار كان يحرضنا على أن نتنكر لعظمه ماضينا ، ونتجاهل روحنا العربية التى تراكم عليها غبار كثيف جعلنا ننصرف إلى حاضرنا وحده ، وإلى حدودنا الضيقة ، وإلى ماضينا البعيد الغائر فى القدم لنبعثه مرة أخرى ، وذلك فى حملة مغرضة كشف الستار من بعد عنها حين اطلق عليها حمله « تغريب العربى » ونزعه من واقعه الفعلى ، وبلبلة فكره بتيارات ومذاهب وأفكار لها بريق وخداع ، وقد جند الاستعمار لها أقلاما وكتابا وصحفا ، ومضى يسوقها حربا عنيفة يحطم بها عوامل القوة فى الشخصية العربية الحيه التى صنعت المجد فى ميدان العلم . والبطولة فى ميدان الحرب. والعظمة فى ميدان الفكر .

وقد خدعنا ثمة وغشيت عيوننا سحابة مظلمة فقلنا بالفرعونية وقال السوريون بالفينيقية . وقال العراقيون بالا شوريه وقال المغاربة بالبربريه ، ومضى بنا هذا إلى واقعية ضيقة صفيقه ، تقيم الحدود المصطنعة فى منطقة موحدة شاملة من الخليج الفارسى إلى المحيط الاطلسى . .

ولكن ذلك لم يمتد أمداً طويلا فإن الأوضاع المفتعلة المصنوعة سرعان ما تنهار وتتحطم أمام أضواء الحقيقة ، فقد تدانى العربى فى كل مكان وتنادى ، وجاءت فلسطين يؤره مشعة للتجمع والثأر .

ثم جاء ضياء الفجر العربى الجديد فعرفت النفس العربية حقيقتها وواقعها ، وانكشفت الرمال السافية التى كانت تحجب عنا طريقها الأصيل ، حتى الكتاب الذين حاربوا القومية العربية فى أيام تلك الموجه العاصفة عادوا اليوم فلووا أقلامهم مرغمين أمام ذلك الضياء الباهر الذى يكشف الظلام ويعمى الخفافيش .

ولكننا اليوم نواجه عواصف جديدة من ثقافات الشرق والغرب جاءت

لتصطرع فى محيط أمتنا العربية . ونحن لا نكره الفكر الحر ولكننا نحبه ولا نغلق أبوابنا أو نوافذنا عن الثقافات تأتى من شمال أو يمين ، بل نحن أشغف ما نكون بأن نرى الجديد ونلقاه ونهضمه ونسيغه إلى كياننا القوى فنتحول به إلى أقوياء يسيرون فى ركب الحضارة بنفس الخطى التى يسير بها المتحضرون ولكننا لاننسى أبدا ملامح شخصيتنا العربية ومعالم كياننا القوى التى لا تتحول أبداً عن طريقها .

ذلك هو مذهبنا « المدرسة الوسطى » التى تتلقى من الشرق والغرب ولا تنصاع لهذا أو ذاك ، والتى تستقبل كل جديد وتصر على أن تمضى على الطريق مع الناهضين والمتحضرين ولكنها لا تنسى أبدا عظمة ماضيها ولا جلال تراثها فهى تعود إليه بين الحين والحين لتصقله وتقدمه من جديد وفق أساليب التحليل النفسى والبحث الجديد .

أننا نؤمن بصهر العناصر جميعها فى بوتقتنا سواء جاءتنا من الشرق أو من الغرب ، ونؤمن بالفكر الخالد سواء كان من القديم أو الحديث .

ولن يستطيع أصحاب الحضارة أن يعيبوا علينا ذلك فقد جددوا هم آثار المدنية القديمة الرومانية والاغريقية وأعادوا صقل أفكار هوميروس وأرسطو وأفلاطون وغيرهم ، فلا علينا إذا فعلنا ذلك . هذا فضلا عن أننا أحوج مانكون لكى نكون اثبت قدماً وأرسخ فى تعرف أمجادنا وصحائف نخارنا وأعلام فكرنا .

إذا فنحن حين نقدم اليوم [الجباه العالية] إنما نقدم ملامح الأعلام من الرجال الذين عرفهم الغرب نفسه قبل أن نعرفهم ، وتلقى منهم تراث الثقافة العالميه حين أودع لدى العرب أمانة فزادوا فيه وأضافوا إليه ثم أعادوه للغرب مرة أخرى . .

أننا اليوم على رأس الطريق : طريق الأمة العربية وهى على وشك أن تتسلم رساله الثقافة والحضارة العالمين لتندفع بها من جديد إلى حياة أشد قوة واتصالا بعد أن غلبت المادية على الفكر إلى الحد الذى خشى معه مفكروا الغرب أنفسهم من انهيار الحضارة .

نحن نؤمن بالحضارة المادية المكتشفة ونصطنعها على قدم المساواة ، ولكننا مازلنا نؤمن بجلال الروح وعظمة النفس الإنسانية

وذلك هو هدفنا من هذا الكتاب

وبعد : فإن الكتابة عن الأعلام تتصل بالنفس اتصالا وثيقا ، وأن هناك شخصيات قد تكون أقرب إلى قلب الكاتب وعاطفته من شخصيات أخرى ، فهو يعيش معها ويصادقها ويحبها ويلتمس عندها دائما « المثل الأعلى » للصورة الإنسانية .

« القاهرة » — سبتمبر ١٩٥٨

أنور الجندى

• أدركت سبعين ممن يقول قال رسول الله عند هذه الأساطين فما أخذت عنهم شيئا ، وأن أحدهم لو أوتمن على بيت مال لكان أمينا إلا أنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن .

مالك

« بلغني أنك تلبس الدقاق ، وتأكل الرقاق ؛ وتجلس على الوطىء ، وتجعل على بابك حاجبا . وقد جلست مجلس العلم : وضُربت إليك المطى وارتحل الناس واتخذوك إماما ورضوا بقولك ، فاتق الله يامالك وعليك بالتواضع » .

.. هذا ما كتبه يحيى بن يزيد النوفلي إلى مالك وقد رد عليه بقوله :

« أما ماذكرت لى أنى آكل الرقاق وألبس الدقاق واحتجب وأجلس على الوطىء ، فنحن نفعل ذلك ونستغفر الله . وقد قال تعالى « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » وأنى أعلم أن ترك ذلك خير من الدخول فيه » .

هذه لمحة تعطى مفتاح شخصية مالك : الرجل الواضح الصريح الذى لا يرائى ولا يداهن . والذى يعترف بأنه يلبس ويأكل فى حدود ما أحل الله . وإن كان يرى أن تركه خير من الدخول فيه .

عاش مالك فى المدينة فلم يبرحها طوال حياته . عاش فى نفس البيئة النبوية التى أشرق فيها ضياء الإسلام فكان فقهه صورة من بيئته : وكان مذهبه هو السنة الخالصة . فقد أحب رسول الله حباً ملك عليه جوانحه ، وبلغ به التحرز أنه كان لا يركب ناقة ويقول أخشى أن تضع حافرها موضع قدم رسول الله . بل لقد بلغ به ورعه أنه كان يسير حافياً .

كان مالك شديد البياض إلى الشقرة طويلا . عظيم الهامة : أصلع . يلبس الثياب العربية الجياد ويكره حلق الشارب ويعيبه . ويراه من المثله ولا يغير شيبه وقد كان موضع رعاية الخلفاء وتقديرهم حتى كان المنصور ينادى فى موسم الحج : لا يفتى ومالك فى المدينة .

قال الشافعى : مالك معلمى وعنه أخذنا العلم . وهو امام دار الهجرة : وقال إذا جاءك الحديث عن مالك فشد به يديك وقال ابن عيينه فى حديث أبى هريرة : يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل يطلبون العلم فلا يجدون أحداً أعلم من عالم المدينة « مالك » .

وذكر ابن الحباب ؛ أن مالكا روى مائة ألف حديث ، جمع منه فى الوطأ عشرة آلاف ، ثم لم يزل يعرضها على الكتاب والسنة ويختبرها بالآثار حتى رجعت إلى خمسمائة وعنه قال — أى مالك — ألفته فى أربعين سنة وأخذتموه فى أربعين يوما ووصفه بأنه شىء قد صنفه ووطأه للناس :

وقد نبغ فى الفقه والفتيا مبكراً . ونصب نفسه للتدريس فى سن السابعة عشره وشهد له سبعون شيخاً من أهل العلم . وطبقت شهرته الآفاق فسافر إليه الناس من كل فج ، وكانوا يزدحمون على بابه ، ويقتتلون على حلقته لطلب العلم .

وبلغ من تكريمه لحديث رسول الله أنه ماجلس يتحدث قبل أن يغتسل

ويتطيب ويلبس أحسن لباسه وكان لا يرفع صوته عند حديث النبي. وقال محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة : أقمت بباب مالك ثلاث سنين وسمعت نيفاً وسبعمائة حديث لفظا .

وكان مالك حر الفكر شجاعا يقول ما يعرف ولا يبالى أن يعلن أنه لا يعلم ما يجهل ولطالما جاءه من يسأله فكان يجيب : لا أدرى .

ولعل أروع ما أثر عنه أسلوبا فى تحقيق الأحاديث ، يدل على الدقة البالغة ؛ يقول : لا يؤخذ العلم من أربعة ويؤخذ ممن سواهم :

لا يؤخذ من سفيه ولا يؤخذ من صاحب هوى يدعو إلى بدعته ، ولا من كذاب يكذب فى أحاديث الناس ، ولا من شيخ له فضل وصلاح وعبادة إذا كان لا يعرف ما يحمل وما يحدث به .

وقد ورث عصارات علم المدينة كلها . فتبلور فى دراساته وأفكاره علم عمر وعثمان وعبد الله بن عمر وعائشة وابن عباس وزيد بن ثابت .

وعاش مالك بالمدينة حتى توفى فى سن السبعين . غير أن هذه الحياة الطويلة لم تخل من متاعب ومحن . فقد كان حريصا على ألا يفرض عليه من الخلفاء رأى أو يجره مطمع إلى مغنم .

* * *

ووقف « مالك » من الخلفاء موقف الحر ذى الكرامة . وقد أفتى بأن لا يمين على مكره : وأحل الناس مما أبرموه من وعود قامت على الاستبداد والغصب وجرؤ والى المدينة على ضرب مالك سبعين سوطا ، انخلعت لها كتفه وصب عليه الماء فى يوم الشتاء البارد ، فلما بلغ ذلك الخليفة أعظمه اعظاما شديداً وأنكره . قالوا : فما زال مالك بعد هذا الضرب فى رفعة من الناس وعلو من أمره حتى كأنما

كانت تلك السياط حليا حلى بها فلما جاء موسم الحج ، جاء المنصور الموسم ، وأرسل إليه يدعوه فلما أقبل مالك استقبله وقرب مجلسه ، يقول مالك « سرت حتى انتهيت إلى القبة التى هو فيها ، فإذا هو قد نزل عن مجلسه الذى يكون فيه إلى البساط الذى دونه ، وإذا هو قد لبس ثيابا قصيرة لا تشبه ثياب مثله تواضعا لدخولى عليه .

فلما دنوت منه رحب بى وقرب . وقال هاهنا إلى ، فاومأت بالجلوس ، فقال ها هنا فلم يزل يدنينى حتى أجلسنى إليه ، ولصقت ركبتى بركبته . ثم كان أول ماتكلم به أن قال بعد أن أقسم :

إننى ما أمرت بالذى حدث ولا علمته قبل أن يكون ولا رضيته إذ بلغنى (يعنى الضرب) .

قال مالك : ثم فاتحنى فيمن مضى من السلف والعلماء فوجدته أعلم الناس بالناس ، ثم فاتحنى فى العلم والفقه فوجدته أعلم الناس بما اجتمعوا عليه وأعرفهم بما اختلفوا فيه ، حافظا لما روى ،واعيا لما سمع .

ثم قال : أنه لم يبق عالم غيرى وغيرك . أما أنا فقد اشتغلت بالسياسة . فأما أنت فضع للناس كتابا فى السنة والفقه تجنب فيه رخص ابن عباس وتشديدات ابن عمر . وشواذ ابن مسعود ، ووطئة توطيئا .

قال فعلمنى كيفية التأليف .

غير أن مالك رفض أن يذعن له وعند ماعاد فى الموسم التالى واجتمع به قال :

إنى عزمت أن آمر بكتبك هذه التى وضعت — يعنى الموطأ — فتنسخ نسخاً ثم أبعث إلى كل مصر من أمصار المسلمين نسخة وآمرهم أن يعملوا بما فيها ولا يتعدوها إلى غيرها . من هذا العلم المحدث فانى رأيت أصل العلم ورواية أهل المدينة وعلمهم .

ولكن مالك الذى كان هذا العمل تكريماً له ولعله لم يقبل ، وأنصف العلم من نفسه . فقال للخليفة :

لا تفعل : فان النــاس قد سبقت إليهم أقاويل . وسمعوا أحاديث . ورووا روايات. وأخذ كل قوم بما سبق إليهم . وعملوا به ودانوا به من اختلاف أصحاب رسول الله . وإن ردهم عما اعتقدوا شديد ، فدع الناس وماهم عليه »

* * *

وروى أن الرشيد بعث إليه ليأتيه فيحدثه . فقال مالك : ياأمير ، من اجلال رسول الله إجلال العلم . فجلس بين يديه فحدثه .

وعندما راى الخلفاء يظلمون الأمة لم يقف صامتا إزاءهم . ودخل المعركة ضدهم بأسلوب العلم وفى محيط الفقه ، دون أن يتعداه ، وكان يؤيد خروج محمد بن عبد الله بن الحسن وأخيه ابراهيم ، فمضى يحدث الناس عن « طلاق المكره » وكان مما يقوله : أنه لا يقع . وأنه ليس على مستكره طلاق .

ومضى مالك يؤلب على الخلفاء الظلمة ، لم يغره ماقالوا له وما قدموا له ، حتى قيل أنه عند ماخرج من عند الخليفة المنصور وضع رجال الخليفة الكسوة على منكبيه وقدموا له ألف دينار عينا وذهبا

ويقول مالك فى ذلك : فلما وضع الخصى الكسوة على منكبى انحنيت عنها كراهية احتمالها وتبرؤا من ذلك .

وظل مالك طوال حياته بعيدا عن محيط الخلفاء . متجرداً لحديث رسول الله غاية فى الورع والاناقة وحسن الثياب .

فلما قيل له ما ترى فى البغاه — أى العصاة الخارجين على الخلفاء — أيجوز قتالهم : قال : إن خرجوا على مثل عمر بن عبد العزيز . قيل : فإن لم يكن مثله قال دعهم ينتقم الله من ظالم بظالم . ثم ينتقم الله من كليهما فكان هذا من أسباب محنته.

وقد ألف مالك بن أنس : الموطأ . ورسالة فى الوعظ . وكتاب المسائل . والرد على القدرية : وكتاب النجوم . وتفسير غريب القرآن وتوفى عام ٧٩٥ . م

● قال مالك بن أنس لأصحابه : أتدرون من هذا النعمان ، لو قال هذه الأسطوانة من ذهب لخرجت كما قال .

أبو حنيفة

لمع أسم « أبو حنيفة » فى تاريخ أصحاب « الجباه العالية » لا على أنه صاحب مذهب من المذاهب الأربعة ، وإنما بوصفه من أحرار الفكر الذين اتسمت مقاييسهم العقلية للفهم دون أن يحصرها جمود أو يحدها موروث .

وقد كان ذلك سبباً فى أن يظل موضع الحقد والكراهية والاضطهاد من انداده وزملائه وذوى الرأى . ولقى فى سبيل حرية رأيه وجزأة فكره متاعب كثيرة . ومع ذلك فقد ظل صلب العود ، لا يلين ولا ينكسر .

لم يكن يحسن الهزل أو يهوى المزاح . بل كان جاداً صارما . تبدو علامات الجد والصرامة على محياة الضامر ووجهة النحيل .

وعرف بالثقة والثبات ؛ حتى أنه بينما كان يلقى درسه فى المسجد ذات يوم إذا بثعبان غليظ يسقط فى حجره . فهرب الناس ، وما زاد هو على أن نفض الحية عن ثيابه وجلس مكانه .

وقد وقع مثل هذا عندما أقتحم الخوارج مسجد الكوفة فى إحدى غاراتهم ، إذ قال لمن حوله من التلاميذ : لا تبرحوا .

فجاء الخوارج حتى وقفوا عليه وقالوا له :

— من أنتم . قال أبو جنيفة : نحن مستجيرون . فتركوهم دون أن يصيبهم سوء . وقد أنقذتهم هذه اللمحة الفكرية من موت محقق .

* * *

ولد بالكوفة ونشأ بها ولم يجد فى أول شبابه من يرشده إلى الأخذ عمن أدركه من الصحابة ، فأشتغل بالبيع والشراء إلى أن لقيه « الأمام الشعبى » فوجهه إلى النظر إلى العلم ومجالسة العلماء . فوقع فى قلبه قوله فترك السوق . وأتجه إلى حلق العلم .

ولكنه نظر فى علم الكلام ، وبلغ فيه مبلغا . وأعطى فيه جدلا . واستمر زمنا يخاصم ويناضل . ودخل البصرة وكانت تعد الكلام أرفع العلوم .

ولم يلبث أن صحح أتجاهه والهم أن الصحابة والتابعين خاضوا فى الفقه والشرائع . فترك الكلام . وهجر الجدل . وجلس فى حلقة حماد فكان يحفظ كل ما يقوله ويخطّىء فيه أصحابه ، فاجلسه بحذائه فى صدر الحلقة عشر سنين . ولكن نفسه نازعته أن ينفرد عنه ويتخذ له حلقه .

وفجأة نعى لحماد قريب لا وارث له غيره فاحتاج للسفر لأخذ ماله واستخلفه فى حلقته . وغاب شهرين ثم قدم .

وقد سئل النعمان فى غيبة حماد عن ستين مسألة لم يكن سمعها منه فاجاب فيها ، ثم عرضها عليه . فوافقه فى أربعين . وخالفه فى عشرين .

وهنا صمم أبو حنيفة على ألا يغادر حلقة حماد حتى يموت .

يقول أبو حنيفة : لزمت حماداً لزوما ما أعلم أحـداً لزم أحداً مثل ما لزمته . وكنت أكثر السؤال فربما تبرم منى . ويقول : يا أبا حنيفة قد انتفخ جنبى . وضاق صدرى . حتى قال له يوما : « أزفتنى » وقد ظل أبو حنيفة يجله ويستغفر له فى الصلاة : ويقول : ما صليت صلاة منذ مات حماد ، إلا استغفرت له مع والدى . وما مددت رجلى نحو داره وأن بينى وبينه سبع سكك . وإنى لأستغفر لمن تعلمت منه أو علمنى .

* * *

وكان أبو حنيفة طويلا تعلوه سمره . يحسن اختيار ثيابه . كثير التعطر . حسن الهيئة . يعرف بالريح الطيب إذا أقبل ، وإذا خرج من منزله قبل أن يراه الناس .

قال شريك القاضى : كان أبو حنيفه طويل الصمت . كثير التفـكير . دقيق النظر فى الفقه . لطيف الاستخراج فى العلم والعمل والبحث ، إذا كان الطالب فقيرا أغناه . فإذا تعلم قال له : وصلت إلى الغنى الأكبر بمعرفة الحلال والحرام .

قال أحد تلاميذه : أقمت عند أبى جنيفة خمس سنين : فما رأيت أطول منه صمتا . فادا سئل عن الفقة تفتح وسال كالوادى . وسمعت له دويا وجهـــارة فى الـكلام . حتى قيل أنه لو حدث عن سارية المسجد أنها صنعت من ذهب لقام بحجته .

وقد بدأ أبو حنيفة تاجرا مدققا لا يقبل فى عمله ذمة من الشكك يمزج بين عزة النفس والتواضع .

وقد كان يتجر فى الخز « مسعوداً ماهراً فيه مستغنيا بنفسه لا يميل إلى طمع . جاءته امرأة تطلب منه ثوب خز فاخرجه لها . فقالت له : أننى امرأة ضعيفة وأنها

أمانة فبعنى هذا الثوب بما يقوم عليك . قال خذيه بأربعة دراهم فقالت : لاتسخر بى وأنا عجوزة كبيرة .

فقالت إنى اشتريت ثوبين . فبعت أحدهما برأس المـال إلا أربعة دراهم فبقى على هذا الثوب بأربعة .

ولا شك أن هذه الصور تعطى جانبا من هذه النفسية الورعة المستهينة بالمادة ، الراغبة فى الإحسان ورعاية ذى الحاجة . وهو فى هذا الميدان لا يبارى ، فقد كان يجمع ربح تجارته فيشترى به لشيوخ المحدثين . ثم يدفع الباقى إليهم ويقول لهم فى تواضع : انفقوا ولا تحمدوا إلا الله . فإنى ما أعطيتكم من مالى شيئا .

ولـكن من فضل الله يجريه على يدى ! .

وقد أُثر عنه أنه كان يعول أبا يوسف وأولاده عشرين سنة ويتصل بهذا ورعه العجيب : ومن هذا أنه أرسل لشريكه متاعا فيه ثوب معيب يبيعه ويبين ما فيه من العيب ولـكن شريكه لم يتنبه للأمر وباع الثوب دون أن يدل شاريه على عيبه ، هنالك غضب أبو حنيفة ، ورفض الثمن ، وتصدق به وكان ثلاثين ألف درهم ولم يلبث أن فاصل شريكه .

وقد بلغ به ورعه إلى ماروى عنه يزيد بن هارون ؛ قال : رأيت أبا حنيفة جالساً يوما فى الشمس عند بيت إنسان فقلت له : يا أبا حنيفة لو تحولت إلى الظل . فقال : لى على صاحب هذه الدار دراهم وقد كرهت أن أستظل حائطه فيـكون ذلك من المنفعة .

وقد ترك لحم الغنم ، عندما فُقدت شاة فى الـكوفة ، إلى أن علم موتها .

ذلك أنه سأل عن أكثر ما تعيش فقيل له : سبع سنين ، فترك أكل لحمها سبع سنين تورعا .

وقيل أنه لا يكاد يُسأل عن حاجة إلا قضاها . كثير الصدقة . كل ما يستفيده لا يدع منه شيئا إلا أخرجه . ما قبل لأحد من الأمراء هدية ولا جائزة .

وقد وصل إليه من المنصور ثلاثون ألف درهم فى دفعات فقال : يا أمير المؤمنين إننى فى بغداد غريب . وعندى ودائع الناس وليس عندى موضع فاجعلها فى بيت المال .

فلما مات أخرجت ودائع الناس من بيت المال فرأوها .

قال المنصور : لقد خدعنا أبو حنيفة .

* * *

وعاش أبو حنيفة سبعين عاما (٨٠ « الكوفة » — ١٥٠ « بغداد » هـ) قضاها بين الفقه والعبادة . وكان بيته عريانا إلا من البوادى ، وهو يوزع الدنانير آلافا مؤلفة . وكان مؤنته فى الشهر درهمان .

قال الشافعى : الناس فى الفقه عيال على أبى حنيفة . ومن تواضعه قوله : أخطأت فى خمس أبواب من المناسك بمكة فعلمنيها حجام .

وتبرز شخصيته الجبارة فى موقفه من الفقه والفقهاء : فقد أخذ عن رسول الله وأخذ عن صحابته . فلما جاء دور التابعين : قال : لا آخذ عنهم ولا عن الذين من بعدهم . وإذا كان التابعى رجلا فأنا رجل .

وقد أتاحت له عقليته الوثابة النفاذة أن يضع فتواه فى ستين ألف مسألة على طريقته المبتكرة « القياس » القائمة على ألاجتهاد والاستنتاج .

وكان النعمان من رجال الفقه والدعوة معا . فقد كان له مجلس وتلاميذ وأتباع ، تعلموا عليه وأقاموا مذهبه من بعده . غير أن مايبلغه من جلال القدر يتصل بموقفه فى القضاء . فقدعرض عليه خليفةمن ذوى الجبروتهو أبو جعفر المنصورأن يوليه ولكنه أصر على الرفض . وحلف عليه الخليفة أن يفعل . فحلف ألا يفعل . وقال: إنى لا أصلح للقضاء !

ثم سجن وأعيد مرة أخرى وقال له المنصور : ترغب عما نحن فيه . فقال : أصلح الله أمير المؤمنين : أنا لا أصلح .

قال المنصور : كذبت .

قال أبو حنيفة : قد حكم على أمير المؤمنين أنى لا أصلح للقضاء لأنه ينسبنى الى الكذب . فان كنت كاذبا فلا أصلح . وان كنت صادقا فقد أخبرت أمير المؤمنين أنى لا أصلح ...

ومضى يحدث الخليفة فيقول : لا تودع أمانتك إلا من يخاف الله . والله ما أنا مأمون الرضا فكيف أكون مأمون الغضب . ولواتجه الحكم عليك ثم هددتنى أن تغرقنى فى الفرات لأخترت أن أغرق .

وداروا به فى الأسواق أياما كثيرة على أن يقبل القضاء ، ولكن لم يلن . وردوه كرة أخرى إلى السجن . ثم أخرجوه إلى منزله ومنعوه من الفتيا والاتصال بالناس .

وقيل ضرب مائة سوط ، حتى سال الدم من عقبيه . ثم أمر له بثلاثين ألف درهم . فلما وضعت بين يديه رفضها . فقيل له : لو تصدقت بها ... وحاورته أمه فى أمره فقالت يا نعمان : إن علما أخذت منه غير الضرب والحبس لحقيق بك أن تنفر عنه فقال : يا أمى : لو أردت الدنيا لوصلت إليها . ولكنى أردت أن يعلم أنى صنت العلم ولم أعرض نفسى فيه للهلكه .

وكان أبو حنيفه يرى أن تولى الوظائف فى ظل ذلك السلطان تضييع للدين وتعريض له للخطر . وجهر أبو حنيفة ضد المنصور . وكان أميل إلى رأى محمد ابن عبد الله « النفس الزكية » .

وأبرز ما فى آراء أبى حنيفة تحريره للعقل وإستعمال الرأى والقياس إذ كانت له قدرة فائقة على « الاستنباط » .

قال أبو يوسف : ما خالفت أبا حنيفة فى شىء ، إلا رأيت مذهبه الذى ذهب إليه أنمى فى الآخرة .

وقد كان أسلوبه فى المناظرة غاية فى البراعة . قصد إليه رهط من أهل المدينة يحاجونه رأيه الذى يراه من أن قراءة المصلين خلف الامام فى الصلاة تكفى عنها قراءه الامام .

قال : لا يمكننى مناظرة الجميع . فولوا أعلمكم . فاختاروا لجدله أعلمهم .

قال: وهل إذا ناظرته لزمتكم الحجة لأنكم اخترتموه فجعلتم كلامه كلامكم .

قالوا نعم : قال هكذا نحن اخترنا الامام . فقراءته قراءتنا وهو ينوب عنا .

وقد أفتى مرة فى خلاف بين رجل كبير وزوجته ، وقد جاءت وفق ما تريد

الزوجة الموسرة فأرسلت إليه بهدية ضخمة فردها . وقال : قل لها إنى إنما ناضلت عن دينى ! ولما أدخل السجن رفض أن يأكل طعامه . وبعث إلى ولده حماد يقول : قد علمت أن قوتى فى الشهر درهمان من ســـويق وقد حبسته عنى فعجله ...

ولما أشرفت روحه على الصعود وضع جبهته على الأرض ساجداً لله . . .

● من لم تعزه التقوى فلا عز له . ولدت بغزه وربيت بالحجاز . وما عندنا قوت ليلة . وما بتنا جياعا قط .

الشـافعي

قال عبد الله بن احمد بن حنبل . قلت لابى . أى رجل كان الشافعى . قال : كان الشافعى كالشمس للدنيا والعافية للبدن .

وفى تذكرة الحافظ : كان الشافعى من أحذق قريش بالرمى ، وكان يصيب من العشرة عشرة ، وكان أولا قد برع فى ذلك . وفى الشعر واللغة وأيام العرب ثم أقبل على الفقه والحديث . وجوّد القرآن على اسماعيل بن قسطنطين مقرىء مكة وكان يختمه فى رمضان ستين مرة . ثم حفظ « الموطأ » وعرضه على مالك .

* * *

يتمثل لى الامام الشافعى وأنا أدرس « سيرته » ، عملاقا نحيلا ، ضامر الجسد مقبول الطلعة ، على الرغم مما قيل عن ملامحه ، وأرى فيه مظهر الرجل الذى يصفه علم النفس « بالانطوائى » . وكل الرجال الذين احتضنوا الافكار والدعوات والمذاهب كانوا من هذا الصنف .

وقد عرف الشافعى بأنه يحب العزلة أحيانا ويلجأ إلى الصمت أحيانا أخرى . وأنه يمكن لنفسه بذلك من التأمل والدرس والمراجعة ، وهى عدة الفقيه والداعيه .

وقد أتاح له هذا الجسد الناحل ، القدرة على السفر والرحلة واحتمال مشقة الانتقال بين العراق ومكة واليمن ومصر .

ولد فى غزة بفلسطين . وحمل منها إلى مكة وهو ابن سنتين . ورحل إلى المدينة ثم سافر إلى اليمن . ثم حمل إلى بغداد أسيراً فى تهمة . ثم عاد إلى مكة ، وقصد مرة أخرى إلى بغداد ثم إلى مصر ، حيث أقام فيها بقية حياته ، وقد أتاحت له هذه الرحلة ، وهذا التنقل المتصل ؛ فى قلب هذه المنطقة التى كانت تعد فى ذلك الوقت ولا تزال — قلب العالم الاسلامى ، فرصة واسعة لدراسة طبائع الناس وأخلافهم ومعرفة مصالحهم واتجاهاتهم ، وفهم الحياة ومشاكلها وقضاياها .

وقد أنضجت « الرحلة » ذهن الشافعى وتفكيره . وأمدته بقوة سيكولوجية رائعة ، وأتاح له ذكاؤه المتقد ؛ وقدرته العقلية الجبارة ، مرونة ولباقة جديرين بالتقدير . فهو قد غير مذهبه الذى وضع أصوله فى العراق ، حين استقر فى مصر ووضع بدلا منه مذهبه الجديد الذى ضمنه خلاصة تجاربه وملاحظاته ودراساته خلال فترة جولاته . وكانت تجارب الائمة والفقهاء الذين إلتقى بهم ، وقرأ لهم قد تبلورت فى نفسه واستقرت ، فاختار منها ماراه صالحا مع البيئة الجديدة التى استقر فيها .

ويكاد يكون الشافعى رابطة العقد بين فقهاء عصره . فاقد ولد فى العام الذى مات فيه أبو حنيفة . وتلقى على مالك فى المدينة ، فبهره بجودة حفظه وألمعية ذكائه ثم كان ابن حنبل من تلاميذه .

وقد التقى حين قدم العراق بأبى يوسف ووكيع .

وبذلك يمكن القول أن الشافعى قد أحاط بالفقه الإسلامى فى عهده واستوعبه استيعابا كان كفيلا بأن يجعله عميد الفقهاء وامامهم فى عصره ، فهو الامام الذى وضع الموازين والمقاييس وضبط الفقه بعد أن جادل الفقهاء وقارعهم وانتصر عليهم .

* * *

فإذا تركنا الحديث عن فقه الشافعى للفقهاء . وذهبنا نتقصى « شخصيته الإنسانية » وجدناه غاية فى القوة والسمو والحيوية ، وتعدد الجوانب وسعة الأفق وذلك بالإضافة إلى ما أثر عنه من براعة وذكاء .

يتحدث الذين عاصروه عنه ، أنه كان محبباً إلى نفوس عارفيه ، وكان إشعاعه ولباقته وحسن حديثه يكسبه حب الناس وثقتهم ، مما كان يزيد عدد أتباعه ومريديه يوما بعد يوم .

وأنه قد توافرت له صفات العالم صاحب المذهب ، هذه الصفات التى تتمثل فيما أثر عنه من طول أناة وحلم ، وابتسام ثغر ، واشراق وجه ، وبعد عن الغضب وتواضع وخفض جناح ، وسلامة صدر ، وصفح عمن يسيء إليه . وبعد عن التعصب أو املاء للرأى . فقد كان يعذر مخالفيه فى الرأى ويقبل منهم .

ويرجع ذلك إلى تلك الأصالة النفسية التى كونت « طابعه » : طابع الزعامة فقد كان رياضيا تعلم الرماية وأجادها كما أسلفنا ، وقال عن نفسه : كانت همتى فى الرمى والعلم .

وقد نقل أسلوب الرياضيين من ميدان الرمى ، إلى حلبة الفقه ، فكان واسع الصدر إزاء معارضيه .

وآية قدرته على الإقناع على طريقة الرياضيين : إقناعه الرشيد ببراءته وهو يخوض بحراً من الدماء ، فقد صُرع أمامه تسعة ، استلت السيوف اللامعة أعناقهم فلما جاء دوره أعطته عارضته القدرة على أن يناقش الرشيد ويقنعه وهو فى هذا الجو العاصف ، وإزاء هذه الشخصية الجبارة .

لقد اتهم فى اليمن بالعمل ضـــد الرشيد ، وحمل مقيداً مع عشرة من أصحابه فلما جىء بهم إلى الرشيد ، وضع حداً لأجلهم ، اما هو فقد أقنع الخليفة . .

قال له وهو بمد النطع والسيف :

يا أمير المؤمنين : ما تقول فى رجلين أحدهما يرانى أخاه . والآخر يرانى عبده أيهما أحب إلى ؟ قال الذى يراك أخاه . قال : فذاك أنت يا أمير المؤمنين ، فلما وضع يده على الخيط . مضى يثبته بقوة . قال : أنــكم وُلد العباس . وهم ولد على . ونحن بنو عبد المطلب فأنتم ولد العباس ترونا اخوتـكم . وهم يروننا عبيدهم .

. . . ونجا .

وقد بلغ به حب الرماية أن جلال السن والإمامة لم يكونا يمنعانه مزاولتها

* * *

قال المبرد ، كان الشافعى أشعر الناس وآدبهم وأعرفهم بالفقه والقراءات . وقال أحمد بن حنبل : ما أحد ممن بيده محبرة ورق ، إلا وللشافعى فى رقبته منّـة وكان من أحذق قريش بالرمى ، ثم أقبل على الفقه والحديث وأفتى وهو ابن عشرين وكان ذكيا مفرطا .

وقال عنه ابن حجر : الشافعى رجل قرشى العقل ، والفهم ، صافى الذهن سريع الإصابة .

وقال الرازى : اتفق الناس على أن الشافعى أول من صنف (اصول الفقه) فهو الذى رتب أبوابه . وميز بعض أقسامه من بعض .

وفى تاريخ بغداد :أن الشافعى لما دخل بغداد وجد فى الجامع مايقرب من خمسين حلقة ، يقول لهم قال الله وقال الرسول وهم يقولون قال أصحابنا حتى مابقى فى المسجد حلقة غير حلقته وقيل للشافعى : كيف كانت شهوتك للعلم ، قال أسمع بالحرف مما لم أسمعه فتود أعصابى أن لها أسماعا تنعم به مثل مانعمت به الأذآن ، قيل له : كيف حرصك عليه . قال حرص الجموع المنوع فى بلوغ لذته للمال ، قيل كيف طلبك له : قال طلب المرأة المضلة ولدها ليس لها غيره .

وقالوا عنه أنه كان يقتصد فى لباسه ، ولم تعرف له صغيرة ، وكان يجالسه أرباب الحلق . وكان حسن الوجه والخلق فحبب إلى أهل مصر من الفقهاء والنبلاء والأعيان : وكان يجلس فى حلقته إذا صلى الصبح فيجيئه أهل « القرآن »فيسألونه فاذا طلعت الشمس قاموا ، وجاء أهل « الحديث » يسألونه . فاذا ارتفعت الشمس قاموا ، ثم تستوى الحلقة للمناظرة والمذاكرة . فاذا ارتفع النهار تفرقوا ، وجاء أهل العربية والعروض والشعر والنحو حتى يأتى المساء . والشافعى جالس فى حلقته لا يضيق بالعلم ولا بالناس .

ولا عجب فقد كان الشافعى أديباً يتذوق الشعر . ويقول أجوده . ويقدر الجمال ويعجب به فى مختلف صوره النفسية والحسية . بل لقد كاد أن يكون أديبا خالصا لولا أن أتيحت له دراسة الفقه . فمضى فيه حتى برز وبلغ القمة .

* * *

وقد روى عن ذكائه والمعيته وسرعة حفظه الكثير ، مما زاد فى قوة شخصيته حتى قيل أنه كان مفرط الذكاء وسيلان الذهن وكان يقوى حفظه باستعمال اللبان

أضف إلى ذلك ماروى من أن صوته كان أشبه بالصنج أو الجرس ، وكان اذا قرأ القرآن إلتف حوله الناس ، وعجوا بالبكاء .

قال بعض اتباعه : كنا إذا أردنا أن نبكى . قلنا قوموا إلى هذا الفتى المطلبى الذى يقرأ القرآن . فاذا أتينا واستفتح القرآن تسـاقط الناس بين يديه وكثر عجيجهم من حسن صوته ويرجع السر فى فصاحة الشافعى إلى انه أقام بالبادية فلقن اللسان العربى .

وقد أملى خــلال اقامته فى مصر — وهى أربع سنوات — ألفا وخمسين ورقة ، وخرّج كتاب « الأم » فى ألفى ورقة ، وكتاب السنن وأشياء كثيرة .

وعرف الشافعى بالعطاء والسخاء . روى انه فرق هبات ضخمة فى مجالس ورودها ، ومد يده يمينا وشمالا بما يرده من العطاء لايبالى الدنيا .

وقيل له مرة : إذا أردت أن تسكن مصر فليـكن لك قوت سنه ، ومجلس من السكان تتعزز به فقال : من لم تعزه التقوى فلا عز له ...

وقد حبب إليه الجهاد حتى قيل أنه لـما قدم مصر سافر إلى الأسكندرية ليرابط بثغرها وبقى مدة سبعة أيام ووجهته إلى البحر فى مراقبة الخطر .

وقد أجتمع للشافعى علمان: علم مالك الذى لزمه حتى مات. وعلم أبى حنيفة الذى أخذه من محمد بن الحسن وبذلك اجتمع له علمان : علم أهل الحديث وعلم أهل الراى.

قال أحمد بن حنبل : ما عرفت ناسخ الحديث من منسوخه حتى جالست الشافعى .

وقد وصل الشافعى بعلمه وثقافته إلى درجة المجتهدين . وارتفع عن أن يكون من اتباع مالك أو تلامذته الذين يجرون فى حدود مذهبه فـكان هذا مصدر الخلاف بينه وبين المالـكية فى مصر . وقد لقى من ذلك عنتاً شديدا .

وكان الشافعى حفيا بالبحث والعمل الدقيق فى سبيل وضع أصول مذهبة ، فقد أثر عنه أنه كان يذهب إلى الصباغين يسألهم عن معاملاتهم ويرتاد السوق يحدث أصحاب الحرف .

وبلغت به الثقة بنفسة أنه كان يعرف أمر أهل مصر قبل أن يأتيهاوكان يقول إن فى مصر فرقتين : فرقة مالك وفرقة أبى حنيفة . ولكنه كان يقول فى حماس ظاهر : أرجو أن أقدم إلى مصر فآتيهم بشىء اشغلهم به عن القولين جيعاً .

وقد حدث ما توقعه ، غير أن الخلاف لم يلبث أن نشب بين أتباعه وأتباع مالك فلقيه فتيان أبن أبى السمح المالكى فضربه أحدهم بمفتاح حديد . فلم يسعف بالعلاج فمات .

وقد مات فقيرا ولم يترك شيئا يذكر وكان قد أجهد نفسه فى الفترة الأخيرة اجهاداً بلغ به إلى غايته حتى قيل أن العلة اشتدت عليه فكان ربما خرج الدم وهو راكب حتى يملأ سراويله وخفه من البواسير .

وقد ترك تصانيف كبيرة إشهرها « الأم » فى الفقه والمسند فى الحديث وأحكام القرآن . والسبق والرمى والأشربة وفضائل قريش وادب القاضى والمواريث وتوفى ٨٢٠م.

● وصف المروزى ابن حنبل فقال : هذا رجل هانت عليه نفسه فى الله .

ابن حنبل

ما ذكرت « المحنة » فى تاريخ الإسلام ، إلا ذكر أحمد بن حنبل وتلميذه فى الاجتهاد والمحنة «ابن تيميه» وما ذكر الاجتهاد والتجديد فى الإسلام إلا ذكر أحمد بن حنبل أستاذ ابن تيميه ومرجع « الوهابيين » وقدوتهم .

لقد امتدت المحنة بابن حنبل أربعة عشر عاما ، طوالا ، ما مر عليه يوم من أيامها دون أن يحس هذا الشبح الرهيب الذى كان يترصد له ليرده عن الحق الذى يعتقده . وليجعله فى صفه ومن أتباعه . وابن حنبل على فقره وضعفه وصحته المتداعية يصر ، ويصر فى عنف ، ويقف كعملاق ، يحتمل قسوة الظلم ولكمات الظالمين ، ويستعذب السياط على جلده الواهن دون أن يتردد لحظة واحدة ، أو يمر بخاطره أن يتراجع عن رأيه . جاءه المروزى يوما وهو فى المحنة فقال : هؤلاء تدموك للضرب والله يقول « ولا تقتلوا أنفسكم » فقال يامروزى : اخرج وانظر ، قال : فخرجت ونظرت فى رحبة دار الخليفة فرأيت خلقا كثيرا والصحف والأقلام فى أيديهم فقلت أى شىء تعملون ؟ قالوا ننظر مايقول أحمد . فنكتبه . فرجع إليه وأخبره .

فقال أأضل هؤلاء ؛ كلا . بل أموت ولا أضلهم .

قال المروزى : هذا رجل هانت عليه نفسه فى الله .

وظل ابن حنبل قويا على المحنة .لا يتراجع . فلما امتحن باقبال الدنيا عليه بعد ، احتفظ معدنه القوى ، بنصوعه وصفائه ، فلم يركن إلى الدنيا حين بسطت له ولم يغير من منهاج حياته وتقشفه وورعه .

وقد بدأت هذه المحنة حينما دعا المأمون الفقهاء ليقولوا مقالة فى « خلق القرآن » وكان قد اتخذ من المعتزلة وزرائه وصفوته وآمن معهم بأن « القرآن حدث مخلوق » ولم يلبث المأمون أن عمم هذه الدعوة . وأخذ يطالب الناس بالقول بخلق القرآن ، ويحملهم على ذلك حملا قاهرا .

وفى عام ٢١٨ أرسل كتبه إلى الأقاليم والأمصار يطلب امتحان الفقهاء والمحدثين فى القول بأن القرآن مخلوق .

وفى بغداد :دعا اسحق بن ابراهيم إلى تنفيذ رغبة المأمون ، فارسل إلى المحدثين والفقهاء والمفتين ، ومنهم أحمد بن حنبل ، فابلغهم رغبة الخليفة . وهددهم بأنهم سينالون العقوبة الصارمة إن لم يقروا بوجهة نظره . وتهاوى الفقهاء واستسلموا . وقبلوا رأى المأمون . وقالوا به . إلا أربعة منهم أحمد ابن حنبل فقد قالوا : لا . ورفضوا أن يذعنوا لرأى المأمون وشد هؤلاء الأربعة : محمد نوح والقواريرى . وسجاده . وابن حنبل بالوثائق ، وكبلوا بالحديد ، وأودعوا السجن مصفدين فى الاغلال . ولم يصبح الصباح حتى استجاب سجاده وفى اليوم التالى أجاب القواريرى .

وحمل ابن حنبل ، وابن نوح إلى المأمون ، فى طرسوس ، فاستشهد ابن نوح

فى الطريق . وانكشف غبار المعركة كلها عن رجل واحد : هو الصادق الصابر : أحمد ابن حنبل .

ولكن الموقف تحول قليلا فقد مات المأمون قبل أن يصل إليه . مات بعد أن أوصى أخاه المعتصم بالاستمساك بمذهبه ، ودعوة الناس اليه ، ومضى المعتصم يأخذ الناس بالشدة ، واتسع نطاق المحنة ، وحملت سنواته إلى الناس البلاء والشقاء بهذه الفتنة .

وأعيد أحمد ابن حنبل إلى السجن فى بغداد ، ثم حمل إلى المعتصم كرة أخرى . وهنالك أخذ يناقشه هو ووزيره أحمد ابن أبى داود قاضى القضاة ، وهو مثقل بقيوده . ولما لم يصلا إلى شىء منه ، ردوه إلى السجن ثم أعادوه للمناظرة ورصدوا له العبيد يحملون السيوف والسياط ، وأحاطوه بالارهاب العنيف ، ولكنه أصر ، ولم يبلغوا منه شيئا : أصر على الانكار .

ومضت السياط تسفع جسده النحيل فى عنف وقسوة ، حتى أغمى عليه . وظلوا يضربونه المرة بعد الأخرى ، وينخسونه بالسيف حتى لايحس من الاغماء . وتكرر ذلك معه فى محبسه أكثر من ثمانية وعشرين شهراً . ثم أطلق سراحه فأقام فى بيته وحيل بينه وبين الافتاء .

وقد ظل طوال حكم المعتصم معتكفا عن الدرس .

ثم تولى «الواثق» فاعاد محاجة أحمد ، وامتحانه ، ولكنه لم يتناوله بالسوط . وكرر عليه ، فلما لم يجد منه قبولا ، بل لقى منه مزيدا من الاصرار والعناد ، طلب منه أن يخرج . وقال له : لاتساكننى بأرض ولا يجتمع إليك أحد .

فخرج مهاجراً وظل يتنقل مختفيا ، مغضوبا عليه ، ولكنه عاد بعد قليل إلى

بيته فاختفى فيه ، ولم يكن يخرج إلى صلاة ولا غيرها وانقطع عن الدرس أكثر من خمس سنوات حتى مات الواثق .

وهنا رفعت المحنة بعد أربعة عشر عاما ، صمد فيها أحمد ابن حنبل وقال «لا» وأصر عليها . ولم ترهبه الرهبة فى الحق ولا فى ذات الله ، ولم يأخذه الاغراء ، ولم يصطنع التقيه ، ولم ينزل عن رأيه ، واحتمل المحنة صابراً راضيا ، لم يضق بها ولم يتعجلها ، وكسب بذلك منزلة ضخمة فى نظر الناس وزاده ذلك مهابة وجلالا وزاد فكرته ذيوعا وانتشاراً .

وجاء المتوكل فارتضى مذهب ابن حنبل واضطهد الشيعة والمعتزله وانتقل الأمر من النقيض إلى النقيض ، وأصبح أحمد ابن حنبل أبرز رجل فى الدولة . ولكنه بالرغم من هذا النصر الباهر ، لم يذهب عنه وقاره ولا زهادته ، وعاش فقيراً مكدوداً مجدودا ، وظل يعمل ولا يقبل العطاء ، رفض عطاء المتوكل الذى عرض عليه المال الكثير ، وأصر على الامتناع ، ولم يقبل أن يأخذه وتصدق به .

ولم يجنح فى أيام محنته عن الاعتدال بل كان يحث على الطاعة ولزوم الجماعة وينهى عن الخروج ، وكان يحمل حبله على عاتقه ويذهب فيجمع بقايا الزرع الذى يترك فى الأرض مباحا .

* * *

وعرف بالصبر والجلد وقوة الاحتمال ، فكان يجوب الفيافى ويقطع البلاد دون أن يضيق بالسفر ومتاعبه .

وكان قد بدأ حياته منتقلا فى البلاد يتلقى العلم والفقه والحديث ، رحل إلى

الـكوفة والبصرة ومكة والمدينة والشام واليمن . وتفقه بالشافعى حين قدم بغداد ، ثم أصبح أماما مجتهدا .

وقال مؤرخوه أنه ارتحل إلى البصرة خمس مرات ، وكان يقيم فيها أحيانا ستة أشهر ، كما رحل إلى الحجاز خمس مرات .

وأُحرزت كتبه يوم مات فـكانت أثنى عشر حملا وكل ذلك كان يحفظه عن ظهر قلب !

قال ابنه عبد الله بن حنبل : قال لى أبى : خذ أى كتاب شئت من كتب وكيع . فان شئت أن تسألنى عن الـكلام حتى أخبرك عن الأسناد أو عن الأسناد حتى أخبرك عن الـكلام .

وقد صقله هذا العلم فـكان مثلا للورع والزهد ونموذجا لشخصية الانسان الـكامل والعالم العامل .

وفيه يقول الشافعى : خرجت من بغداد وما خلفت فيها أفقه ولا أروع ولا أعلم من أحمد بن حنبل ومما يؤثر عنه أنه لم يجلس للفيتا والحديث إلا بعد سن الأربعين . وقيل أن من كانوا يستمعون إليه خمسة آلاف يكتب منهم نحو خمسمائة .

وقد انشأ حادث المحنة الذى رسم له صورة من الهيبة والجلال ؛ مدرسة من مدارس الأمر بالمعروف والنهى عن المنـكر ، استشرى خطرها من بعده وكانت عاملا فعالا فى توجيه الحياة الاجتماعية فى العراق .

* * *

وقيل كان ابن حنبل يعمل بيده ويسوى تراب أرضه وربما أخذ القدوم وخرج

إلى دار السكن ليعمل ، وكان يأمر أولاده أن يختلفوا إلى السوق وأن يتعرضوا للتجارة .

وولد ابن حنبل فى بغداد ، وكان أبوه والى سرخس فنشأ مكبا على طلب العلم وسافر فى سبيله إلى الكوفة والبصرة ومكة والمدينة واليمن والشام والثغور والمغرب والجزائر والعراقين وفارس وخراسان والجبال والأطراف : ووضع المسند فى ٣٠ ألف حديث ، وله كتاب عن التاريخ . والناسخ والمنسوخ . والتفسير . وفضائل الصحابة والمناسك والزهد .

وقيل كان أسمر اللون حسن الوجه طويل القامة . يلبس الأبيض ويخضب رأسه ولحيته بالحناء .

وعندما ترك الشافعى بغداد قال : خرجت من بغداد وما خلفت فيها اتقى من احمد بن حنبل .

وتوفى عام ٨٥٥ م

• هو الحب أعزك الله أوله هزل وآخره جد ، دقت معانيه لجلالتها عن أن توصف فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة ، ليس بمنكر فى الديانة ولا بمحظور فى الشريعة إذ القلوب بيد الله عز وجل

ابن حزم

ما أظن أن شخصية من شخصيات العلماء فى تاريخ الإسلام تملأ النفس إعجابا كما تفعل ذلك سيرة « ابن حزم » بما أعطيت من سمو الأفق والإشراق والجرأة . فهو الإمام العالم المحب الذى أعلن رأيه فى هذه العاطفة النبيلة . وأفرد لها كتابا ، ولم تحل عظمة مكانه العلمى كوزير أو إمام من أن يقول إنه أحب فى عفاف ووفاء .

قال الحافظ أبو عبد الله « وما رأينا مثله فيما اجتمع له من الذكاء وسرعة الحفظ وكرم النفس والتدين ، وما رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرع منه » وقيل « إنه كان يحمل علمه ويجادل من يخالفه فيه فكان نتيجة لحرية رأيه أن نفرت منه القلوب . وأبعد عن وطنه . وتوغل فى البادية .

قد عاش « ابن حزم » كريم النفس عازفا عن صحبة الملوك فكانت نهاية

ذلك حقد العلماء عليه وإيغارهم صدور الملوك عليه مما أدى إلى حرق مؤلفاته علانية فى أواخر حياته .

وكان أجمل لذات حياته السعى وراء العلم ، حتى كان له من التأليف ما لم يعرف لغيره من علماء العرب باستثناء ابن جرير الطبرى ، وقد كان عصاميا فى ثقافته فقد علم نفسه وأكب على الدراسة غير مستعين إلا برغبته القوية . وقد أتاح له ذكاؤه أن يصل إلى ذروة العلم فاستوعب أعلام الفقه والتفسير والحديث والأدب والشعر والتاريخ من أطرافها .

وكان له رأيه المستقل الذى كونه نتيجة بحثه . وقد بلغ فى ذلك مبلغ المجتهدين . وتحرر من نقد خصومه ومخالفيه فى الرأى مما أوغر صدورهم وأثار عداواتهم . فألبّوا عليه المعتضد بن عباد أمير أشبيليه .

وصفه ابن حيان مؤرخ الأندلس بقوله : إنه حامل فنون من حديث وفقه وجدل ونسب وما يتعلق بأذيال الأدب مع المشاركة فى كثير من أنواع التعاليم القديمة . ، وتحليل عوارضه وأحواله يعد من الآثار البارزة فى تراثنا الأدبى .

وهو بين فقهائنا الأعلام ، من وجد الحب جديرا بالدرس خليقا بالبحث والتحليل ، فقد كان معظم الفلاسفة والمفكرين منذ عهد الفلسفة اليونانية إلى القرن التاسع عشر يرون الحب من المسائل التى لا يصح لهم أن ينزلوا من عليائهم إلى الكلام عنها .

وقد امتحن ابن حزم بالسياسة فارهقتة وأضنته . فقد كان لجرأته أصدقاء وأعزاء فلما نشبت الاضطرابات السياسية فى قرطبة وزلزلت الأسرة العامرية التى كان والده وزيرها تأثر مركزهم بهذه النكبة وعانى من صنوف المحن الشىء الكثير .

وغادر ابن حزم قرطبة بعد أن خرّب البربر قصرهم ، واختار « المرية » مكانا لإقامته ولكنه لم يلبث بها إلا قليلا حتى سجنه صاحبها فظل فى السجن بضعة أشهر . ثم نفاه مع صديقه [أحمد بن اسحق] حيث ذهب الرجلان إلى بلدة حصن القصر واختاره الخليفة عبد الرحمن المرتضى فى بلنسية وزيرا له فلما قامت حرب غرناطة اشترك فيها مع جيش الخليفة فوقــع فى الأسر . ثم أُطلق ورجع إلى قرطبة . ثم زج به فى السجن مرة أخرى بعد أن مات صديقه عبد الرحمن المستظهر .

وهكذا ولى الوزارة مرتين . وكان لا يلبث أن يخرج من السجن ليدخل سجنا آخر ، وقد أثرت فترات السجن فى نفسيته وعرقلت جهوده وإنتاجه وانتهى الأمر بأن تفرغ للدرس والتأليف ولكن المتاعب لم تدعه يشق طريقه فى هدوء . وكانت هذه المتاعب خلال الفترة ما بين عام١٠١٠ و١٠٢٤م فقد كان جريئا فى النقد يرى الحرية فى مهاجمة خصومه ومخالفيه فى الرأى ، حتى لقد قيل أن لسانه كسيف الحجاج ، ذلك أنه اتخذ مذهب الاجتهاد وكان له من علمه الغزير قدرة على أن يقف فى صف الأئمة المجتهدين فقد كان فقيها مفسراً محدثا أصوليا متكلما منطقيا طبيبا أديبا شاعراً مؤرخا وكان إلى ذلك عاملا بعلمه ثم زاهداً فى الدنيا .

وقد ذكر فى كتابه « طوق الحمامة » أن شيخه فى كثير من العلوم هو عبد الرحمن بن أبى يزيد الأزدى .

وكان ابن حزم يؤمن بأنه لا بد أن يقول كلمة الحق مهما ضاق بها الناس وألبت عليه الحكام ، وأنشأت الخصومات والدسائس عملا بالعهد الذى أخذه الله على العلماء (لتبيننه للناس ولا تكتمونه) وقد أشقاه إيمانه هذا ونغص عليه حياته فقد كانت كلمة الحق دائما لا ترضى الناس ولا ترضى بعض الحكام الذين

ألفوا من العلماء النفاق والسير فى الركاب مهما كانوا عليه من الظلم أوالاستبداد .

ولعل أبرز مظهر فى عظمة شخصيته جرأته فى الكتابة عن الحب ، فصور « نفسه الذائبة المكلومة بسهام الصبوة العفة بل الروح المخضلة النديه بماء الشغف والشوق : تلك الروح الناعمة التى صقلها الحب »

وقد أحس ابن حزم وهو يكتب أنه سيكون مثاراً للنقد فقال : ومع هذا يعلم الله أنى برىء الساحة ، سليم الأديم نقى البشرة سينكر على بعض المتعصبين تأليفى لمثل هذا ويقولون أنه خالف طريقته وتجافى عن وجهته وما أحل لأحد أن يظن فى غيره ما قصدته »

وقد وصف الحب بأن « أوله هزل وآخره جد ، دقت معانيه لجلالتها عن أن توصف فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة » وقد كتب هذه الرسالة وهو منفى بعد أن استقر فى « شاطبه » فكشف عن صورة الإنسان الذى شغله الحب ، ولكنه لم يعرف منه إثما ولم يورطه فى خطيئة ، ولعله كان بكتابه هذا يروح عن نفسه ويفضى إلى الورق بما عجز عن الإفضاء به إلى الناس .

وقد قال ابن حزم أن الحب استحسان روحانى وامتزاج نفسانى بين أجزاء النفوس فى أصلها الرفيع . وهو اتصال بين أجزاء النفس المعشوقة فى هذه الخليقة فما تناسب فى النفوس اتصل وما تخالف منها انفصل .

ولابن حزم كتاب آخر عنوانه « مبادىء النفوس » جمع فيه خلاصة تجاربه فى الحياة وآرائه فى الأفرد والجماعات نهج فيه نهج ابن القفع فى الأدب الكبير .

وقد تحرر ابن حزم من تقليد المذاهب الأربعة ، ولم يخضع للتصوف ، وأثر

على ما كان معروفا فى زمنه ، مذهبا جديدا يقف عند ظواهر نصوص الكتاب والسنة فكان يؤثر النص ويكره التأويل .

ذكروا أن الباجى أبا الوليد سليمان شارح الموطأ ناظره يوما فقال :

أنا أعظم منك همة في طلب العلم لأنك طلبته وأنت معان عليه بمشكاة من ذهب وطلبته وأنا أسهر بقنديل . فقال ابن حزم : هذا كلام عليك لا لك . لأنك طلبت العلم رجاء حال تريد تبديلها بمثل حالى .

✿ ✿ ✿

وإذا كان ابن حزم قد قاسى أهوال الملك وانهيار العروش ومتاعب التحول فى أمور السلطان ، وقضى فى السجن فترات متعاقبه فإنه كان مؤمنا بنفسه معتزا بذاته ، وكبير الثقة بالله ، وقد استطاع أن يفرغ صور حياته وملامح نفسه فى كتابيه « طوق الحمامة » و « ومبادى النفوس » وإن كان قد لجأ إلى الطريقة الموضوعية .

ولابن حزم مؤلفات أخرى حافلة بالآراء الدقيقة فى مسائل الدين والفقه تضعه فى صفوف العلماء الأجلاء ولعله مما عزاه عن حرق مؤلفاته أن حرقت مؤلفات الغزالى وابن تيمية أيضا فى عهود الظلم ، حيث كانت أهواء السياسة هى التى تحكم على الأمور ، ولا تدعها للعقل المنصف أو التقدير الصحيح .

ولم يأخذ المؤرخون على ابن حزم إلا صراحته الصريحة ، هذه التى جعلته لا يجامل ولا يأخذ الأمور بالحكمة والمصانعة والمرونة ، وهو ما أوقع الخلاف بينه وبين العلماء فى عصره على هذه الصورة التى أججت قلوبهم بالحقد ، فذهبوا مع أهوائهم مذهب الدس والوقيعة . وقد وصف ابن حزم حرق كتبه فى أشبيليه بقوله :

دعونى من إحراق رق وكاغد ، وقولوا بعلم كى يرى الناس من يدرى
فإن تحرقوا القرطاس لن تحرقوا الذى تضمنه القرطاس بل هو من صدرى
يسير معى حيث استقرت ركائبى وينزل إن أنزل ويدفن فى قبرى

ومن شعره قوله :

مناى فى الدنيا علوم أبثهـا وأنشرها فى كل باد وحاضر
دعاء إلى القرآن والسنة التى تناسى رجال ذكرها فى المحاضر

وقد ولد ابن حزم فى قرطبة عام ٩٩٤ .

وعاش مشرداً من بادية إلى بادية حتى انتهى إلى بادية لبله فتوفى بها عام ١٠٦٣ .

● أنا لا أذل العلم ولا أحمله إلى أبواب السلاطين فمن كانت له حاجة إلى شيء منه فليحضر إلى مجلسي أو داري .

البخـارى

سمع بعضهم بعجائب أخباره فخرج فى طلبه فلقيه فقال له : أنت الذى تقول أنا أحفظ سبعين ألف حديث . قال البخارى : نعم وأكثر ؛ ولا أجيبك بحديث عن الصحابة والتابعين إلا من عرفت مولد أكثرهم ووفاتهم ومساكنهم . ولست أروى حديثاً من حديث الصحابة والتابعين إلا ولى فى ذلك أصل أحفظه حفظا عن كتاب الله ورسوله .

ذلك هو محمد بن اسماعيل البخارى أُلهم حفظ الحديث وهو فى الكتاب له من العمر عشر سنين فلما شب بلغ حفظه سبعة آلاف حديث . وتكشفت له من حدة ذهنه وقوة حفظه عجائب وآيات . فلما بلغ السادسة عشرة كان قد حفظ كثيراً من كتب السابقين فخرج إلى مكة حاجا وأقام يطلب الحديث فيها ثم قصد إلى المدينة وبدأ يكتب كتابه وهو ابن ثمان عشرة سنة عند قبر النبى فى الليالى المقمرة . وارتحل فى سبيله إلى سائر مشايخ الحديث فى البلدان فزار مراكز العلم

فى مصر والشام والعراق وأقاليم فارس . ولقى علماؤها وأخذ عن ألف شيخ وأكثر وبلغ من سرعة حفظه أنه كان ينظر فى الكتاب نظرة واحدة فيحفظ ما فيه .

وقد ظل يطوف فى العالم الإسلامى ستة عشر عاما .

وقد خرج كتابه الجامع الصحيح فى ستة آلاف حديث عن تسعين ألف رجل ولم يضع فيه حديثا إلا اغتسل وصلى ركعتين . ونظم تراجمه بين قبر النبى ومنبره يصلى ركعتين لكل ترجمه .

ومنذ ولد إلى أن مات ما اشترى شيئا . ولا باعه . حتى الحبر والكاغد الذى يحتاجه كان يكلف غيره بشرائه ، يقوم بالليل بضع عشرة مرة فيوقد السراج ويخرج أحاديث فيعلم فيها .

ويذكر ابن اسماعيل زميله فى الصبا أنهم اختلفوا ستة عشر يوما إلى مشايخ البصرة والطلبة يكتبون وهو لا يكتب • حتى عابوا عليه ما يضيع . فقال لما اكثروا : اخرجوا ما كتبتم فى تلك الأيام فإذا المكتوب خمسة عشر ألف حديث فقرأها كلها عن ظهر قلب . وعرف عنه هذا النبوغ فكان أهل المعرفة فى البصرة يعدون خلفه وهو فى الطريق فيجلسونه كرها فيستملى عليه الألوف . قال ابن النضر : دخلت البصرة والشام والحجاز والكوفة ورأيت علماءها فكلما جرى ذكر البخارى فضلوه على أنفسهم .

وهو الذى كان يدخل الأمصار والحواضر فيتنادى الناس بمقدمه ويتعادون لسماع الحديث عنه حتى يبلغ مجاسه عشرين ألفا أو يزيدون .

وقد أذل له نبوغه منذ أول شبابه نفوس أهل الكبر حتى لقبوه بالكبش النطاح .

وذكروا أنه لما رجع إلى بخارى نصبت له القباب على فرسخ من البلد واستقبله عامة أهلها ونثرت عليه الدراهم والدنانير وبقى مدة يحدثهم فأرسل إليه خالد بن محمد الذهلى نائب الخلافة العباسية يسأله أن يحضر منزله فيقرأ الجامع الصحيح على أولاده فامتنع البخارى وقال لرسوله :

قل له أنا لا أذل العلم ولا أحمله إلى أبواب السلاطين فمن كانت له حاجة إلى شىء منه فليحضر إلى مسجدى أو دارى . فان لم يعجبك هذا فأنت سلطان فامنعنى من المجلس ليكون لى عذر عند الله يوم القيامة ، إننى لا أكتم العلم . فأمره الوالى بالخروج فخرج من بخارى وقصد إلى سمرقند فلما كان على بعد فرسخين منها بلغه أن فتنة وقعت بين قوم يريدون دخوله وقوم يكرهونه فانحرف عنهم إلى منزل بعض أهله حتى جاء قوم من أهل سمرقند يلتمسونه .

ويمتد كتابه الصحيح عبر حياته كلها منذ شبابه الباكر إلى أن توفى عام ٢٥٦هـ فقد عرف طريقه إلى هدفه وعاش له . وقد نشأ يتيما فى حجر والدته . وسمع عن الدواخلى وحفظ كتب ابن المبارك وقرأ ابن وكيع ولم يدع بلدة فى هذه المنطقة الممتدة من مصر إلى نيسابور لم يقصد إليها ويستمع إلى رجال الحديث فيها ، حتى لقد كان يتردد على بعض البلاد مرات فقد زار مصر والشام والجزيرة مرتين والبصرة أربع مرات وأقام بالحجاز ستة أعوام وبغداد ثمان مرات .

وقال : لقيت أكثر من ألف رجل من أهل الحجاز والعراق والشام ومصر وخراسان .

وقد أعانه على هذا الجهد الضخم طبيعة قوية صلبة تحتمل الجهد . وحافظة قوية لاقطة ، وقد كان إلى ذلك غاية فى الحياء والشجاعة والسخاء والورع والزهد فى الدنيا ، كما عرف بسيلان الذهن .

ويقول إني لأرجو أن ألقى ربي لايحاسبني أن اغتبت أحداً وقد شغل نفسه بالحديث عما عداه من العلم ، وعما سواه من متع الحياة .

وروى عمر بن حفص الأشقر أنهم افتقدوه أياما من كتابة الحديث قال فطلبناه فوجدناه في بيت وهو عريان . وقد نفد ما عنده ولم يبق معه شيءفاجتمعنا وجمعنا له الدراهم حتى اشترينا له ثوبا وكسوناه ثم اندفع معنا في كتابة الحديث .

وكان بارعا في اختيار الأحاديث وتمحيصها وله معرفة بالرجال . أمينا في إيراد المتون . وقد لقي الحفاظ وجالس المحدثين فسمع منهم وأخذ عنهم ومضى يقارن بين المتشابه حتى رد الأشياء إلى مصادرها .

وقد روى عنه قوله : ما من اسم في التاريخ إلا وله عندي قصة .

وبالرغم من مهارته في الحديث وتعرف الرجال فقد كان فقيها . وروى عن ذاكرته أحاديث قد تعد من المبالغات ولكنها تدل على أنه كان غاية في الذكاء ومع هذا الجهد فان ذلك لم يشغله عن أداء واجبه في الجهاد فقد كان يتمنى أن يحمل السلاح في سبيل الله .

روى محمد بن أبي حاتم الوراق أنه كان مع البخاري في ثغر حربي أسمه «فربر» فكان البخاري يقضي الليل في التيقظ لجمع الحديث وصلاة السحر فقلت له : إنك تحمل على نفسك كل هذا ولا توقظني .

قال البخاري : أنت شاب فلا أحب أن أفسد عليك نومك .

وفي يوم كان البخاري قد تعب في تصنيف كتاب التفسير فاستلقى على قفاه

فقلت له سمعتك تقول يوما : إنى ما أتيت شيئا بغير علم قط مذ عقلت فاى علم فى هذا الاستلقاء . قال : هذا ثغر من الثغور خفت أن يحدث حدث من أمر العدو فاحببت أن أستريح وآخذ أهبة ذلك فإن غافصنا العدو كان بنا حراك .

* * *

ويقول البخارى فى مقدمة كتابة « الجامع الصحيح » أنه أخرجه فى نحو ستمائة ألف حديث وصنفه فى ست عشرة سنة وجعله حجة بينه وبين الله .

وقد رفض البخارى أن يكون تابعا لأمير أو وال .

وظل البخارى يقاسى من العداوات والخصومات الشىء الكثير ، حتى روى أنه عندما قدم بغداد ، تآمر أصحاب الحديث عليه واجتمعوا له وعمدوا إلى مائة حديث فقلبوا متونها وأسانيدها وجعلوا متن هذا الاسناد لاسناد آخر واسناد هذا المتن لمتن آخر ، ودفعوها إلى عشرة رجال ، كل رجل عشرة أحاديث وأمروهم إذا حضروا المجلس أن يلقوها على البخارى وأخذوا منه موعد المجلس فحضر ، فلما اطمأن المجلس بأهله ، انتدب إليه رجل من العشرة فسأله عن حديث من تلك الأحاديث . فقال البخارى : لا أعرفه . فسأله عن آخر فقال : لا أعرفه فما زال يلقى عليه واحداً بعد واحد ، حتى فرغ من عشرته والبخارى يقول : لاأعرفه فكان العلماء ممن حضر المجلس يلتفت بعضهم إلى بعض ويقولون : من كان منهم غير ذلك يقضى على البخارى بالعجز والتقصير وقلة الفهم .

ثم انتدب الرجل الثانى ففعل معه ما فعل الأول . وانتدب الثالث والرابع إلى تمام العشرة حتى فرغوا كلهم من الأحاديث المقلوبة . والبخارى لايزيد على قوله : لا أعرف .

فلما علم البخارى أنهم فرغوا التفت إلى الأول منهم فقال :

أما حديثك الأول فهو كذا . وحديثك الثانى فهو كذا والثالث والرابع حتى أتم العشرة ، فرد كل متن إلى أسناده ، وكل أسناد ألى متنه ، وفعل بالآخرين مثل ذلك ، ورد متون الأحاديث كلها إلى أسانيدها . وأسانيدها إلى متونها .

وهكذا تغلب إيمان البخارى وذكاؤه على كل محاولة للتآمر عليه .

وقد ذاع ذلك فى كل مكان حتى كان البخارى يقابل عند دخول الأمصار مقابلة تجل عن الوصف . وكان العلماء يخشعون فى مجلسه كانما يظلهم الجبل .

وهكذا حق أن يطلق على البخارى « أمير المؤمنين فى الحديث » .

● ثم أعلم أن الكسب إنما يكون بالسعى فى الاقتناء والقصد فى التحصيل فلا بد فى الرزق من سعى وعمل . والسعى انما يكون بأقدار الله تعالى والهامه فالكل من عند الله ؛

ابن خلدون

توفى ١٤٠٥ م

شخصية تحس حين تتصل بها عن قرب «وهج العبقرية» ، وقد احتسب فى أكثر من قائمة ، وعد فى أكثر من ثبت . فهو واحد من العباقرة العشرة فى الاسلام : البيرونى فى العلوم والغزالى فى الكلام وابن خلدون فى التاريخ وجلال الرومى فى التصوف وابن سينا فى الطب وابن رشد فى الفلسفة والفرودوسى فى الشعر .

وهو واحد من المطوفين فى الأرض : الغزالى والشافعى والبخارى وابن خلدون .

وهو فى حساب الفلاسفة فيلسوف ، وفى المؤرخين مؤرخ ، وعند البلغاء كاتب ، وهو واحد من الذين ضاقت بهم نفوسهم ، واحسوا بأنهم لم يصلوا إلى المنزلة التى هم أهل لها ؛ أو التى يستحقونها فعاش حياته شريدا هائما على وجهه ، يلمع اسمه فى انحاء المملكة الاسلامية لمعان النجم ، ولكنه يرى نفسه دون ما يريد وقد عاش حياته مهاجرا ينتقل من مكان إلى مكان ، وحينما يذهب يلحق به حساده

ويكيد له خصومه ، وامتحن بأهله الذين هاجروا ليلحقوا به في مصر فغرقوا ، ومات غريبا فى القاهرة بعد سياحة طويلة من اشبيلية إلى المغرب إلى الحجاز والشام.

ورأى خلال ذلك من الأهوال : رأى تيمور المغولى يجتاح الشام ، وتيدو الأسبانى يتأهب للوثوب إلى غرناطه آخر حصن للإسلام فى الأندلس .

وبعد أن التقى بعشرات الملوك والسلاطين ، وعمل معهم ، وفيهم من عرض عليه الاقامة ، فاقام ، ولكن المؤامرات كانت لاتلبث أن تفسد مابينه وبين أصحابه ، فقد امتحن ككل العباقرة ورجال الفكر والأعلام بخصومات وأحقاد كانت تدفع به إلى الهجرة والنفى والاغتراب .

ولكن النفس المتطلعة إلى المجد لا تركن إلى الهوان ، ولا ترضى بالإقامة على الذل .

* * *

وقد تنقل ابن خلدون فى بلاد المغرب ، ولمع اسمه ، وقربه الملوك والأمراء ، وكان موضع رعاية السلطان أبو عنان المرينى صاحب تلمسان ، فأحقد أقرانه فسعوا بينه وبين الأمير بالوشاية واتهموه بالتآمر على حياة السلطان فاعتقل وظل سجينا إلى أن مات أبو عنان .

وكان أبو عنان قد أمر بقتلة ثم اكتفى بأن انزله المطبق عامين طويلين عانى فيهما مالا حد له من المتاعب ثم عمل مع السلطان أبا سالم المرينى ، وكان كاتب سره ، وما لبثت الوشايات أن أفسدت ما بينه وبين الأمير ، فانقبض عنه ابن خلدون .

وارتحل ابن خلدون إلى الأندلس ، وقصد أبا عبد الله سلطان غرناطه فاكرمه

وقربه ، ثم رحل إلى قشتاله ، وعاد إلى غرناطة حيث اقطعه أبو عبد الله بلداً وصيره من الأمراء .

ولـكن انى لابن خلدون أن يستقر ، فقد سافر إلى بجاية ، حيث قلده سلطانها أعمال دولته وأسند إليه رياسة الحـكومة . فظل فى خدمته إلى أن اجتاح « بجاية » أمير قسطنطينية الذى استبق ابن خلدون وأكرمه .

وفى تلمسان استقر ابن خلدون أربع سنوات وضع خلالها مقدمته .

ولـكن نزعة الترحال دفعته إلى السفر إلى مسقط رأسه « تونس » حيث قضى وقتا فى رعاية سلطانها ولـكن الوشايات مضت تطارده .

فنزح إلى مصر ، حيث درّس فى الأزهر ، وقرأ الفقه على مذهب مالك ، واتصل بالسلطان برقوق الذى أكرمه وولاه قضاء المالـكية .

وسافر إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ، ولما عاد إلى مصر شغل نفسه بكتابة تاريخه المعروف حتى أتمه . وقد قضى فى تأليفه خمسة عشر عاما .

* * *

ذلك موجز لحياة عريضة خصبة عاشها فى محيط السعايات والوشات ، وكان لتنقله بين الممالك وارتحاله ، والدسائس والمكايد التى عاناها من الحـكام والملوك وممارسته شئون الدول ، وما استفاد من المشاهدات ومن العبر وما اكتشف من دخائل السياسة ومؤامرات القصور ما أعانه على استيفاء بحثه التاريخى .

وقد عاصر الأحداث فى دولة المرابطين والموحدين وإمارات حفص وبنى مرين وبنى عبد الواد . وقطع الهضاب والصحارى متغلغلا بين القبائل دارساً طبائع

المجتمع وأحواله ، مطالعا باحثا مسجلا دراسة الطبائع والنظم وقد تملكه حلم كبير هو كتابة التاريخ على نحو جديد .

وفي خلوته في تلمسان كتب المقدمة قال « وأكملت المقدمة على هذا النحو الغريب الذي اهتديت إليه في تلك الخلوة فسالت شآبيب الكلام والمعاني على الفكر حتى امتحضت زبدتها وتآلفت نتائجها » ومن العجيب أنه أتمها في خمسة شهور .

وذلك في خلال أربع سنين انقطع فيها للمطالعة والدرس والتأليف . فلما رحل إلى تونس أتم فصول « كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر » .

* ٭ *

وقد عرف « ابن خلدون » بالبراعة والعبقرية في الفقه والقضاء والعلم والتدريس والتاريخ ولكنه امتحن بالخصوم والأعداء في كل مكان .

ولقد رسمت مقدمة ابن خلدون صورة واضحة لتلك العقلية النادرة في فهم التاريخ وأسرار الأمم ونظم العمران وطبيعة الأقاليم ومظاهر البداوة والحضارة ومعالم الأنساب والملك والسياسة . وكما وضع الشافعي أصول الفقه وضع ابن خلدون أصول التاريخ .

وكما امتحن بالناس ، امتحن في أهله فغرقت أسرته في البحر وهي في طريقها إلى مصر ، وماتت زوجته وأولاده . وكان هذا عاملا بالغ الأثر في نفسيته الطموح الراغبة إلى العلا . فاندفع إلى لون من الزهد وآثر العزلة وتقطعت به أسباب الأمل .

وقد وقع له هذا وهو في سن الستين ، وحاول أن يخفف أثره النفسي فسافر إلى الحجاز ، وعاد يدفن همومه في هذا العمل الشاق الذي كان بدأه من قبل وشغلته

الأحداث والمطامع النفسية عن إتمامه فأمضى ثمانية أعوام كاملة وقد انصرف له بكليته وهجر الناس ومجالس الأمراء حتى أتمه ، وكان إتمامه نذيرا بانتهاء حياته فإنه لم يلبث أن ودع الحياة .

* * *

وقد ولد « ولى الله عبد الرحمن بن خلدون » من أسرة أندلسية توطنت اشبيليه ونزح مع أجداده إلى تونس ، وقد تكوّن بجامعة الزيتونة على الطريقة التى تكون بها أمثاله وهى التى تقيم الرتبة العقلية على ثلاث قواعد متوازية : الدين الإسلامى والأدب العربى والفلسفة التى شيدها الفلاسفة المسلمون .

ونشأ مغامراً إلى أقصى غايات المغامرة — وقد عرفت قبيلته « كنده » بحب المغامرة — شغوفا بطلب العلم ، وكان أبوه أول أستاذ له وقد كلفته المغامرة السجن والتشرد بعد أن تقلب فى قصور تونس وبجايه وتلمسان وفاس وهوفتى لم يتجاوز الثلاثين :

* * *

ولما وصل « ابن خلدون » إلى مصر فى عصر قلاوون عام ١٣٢٦ م أحبها وأعجب بها وكتب عنها يقول : « فرأيت حاضرة الدنيا وبستان العالم ومحشر الأمم ومدرج الذر من البشر وإيوان الإسلام وكرسى الملك تلوح القصور والأواوين فى جوه وتزهو الحدائق والمدارس والكواكب بآفاقه ، وتضىء البدور والكواكب من علمائه ، قد مثل بشاطىء النيل نهر ، ومدفع مياه السماء يسقيهم العلل والنهل سيحه ويجبى إليهم الثمرات والخيرات ثجة ومررت فى سكك المدينة تغص بزحام المارة وأسواقها تزخر بالنعم » وعندما جاءت

الأنباء سنة ١٤٠٠ م بان تيمورلنك انقض بجيوشه على الشام واستولى على حلب بعد السفك والتخريب . ثم اخترق الشام جنوبا إلى دمشق ، وهرع الناصر فرج بجيوشه لملاقاة الفاتح التترى معه جمهرة من الفقهاء والعلماء فى المدرسة العادلية كان هو فى جملة من ذهبوا مع الناصر .

ولم يدع حبه للمغامرة وهو فى سن السبعين ، فإنه نزل من أبراج المدينة المغلقة مدلى بحبل حيث قصد إلى معسكر الفاتح فى جرأة .

وقد سأله الفاتح عن المغرب ومدنه وأحواله وسلاطينه وطلب إليه أن يكتب له رسالة فى وصف المغرب فأعدها له فى أثنى عشر كراسة .

وعندما غادر ابن خلدون دمشق عائداً إلى القاهرة دهمه اللصوص فسلبوه ماله ومتاعه .

وقد تقلب فى مصر بين القضاء والتعليم ثم تفرغ للدرس والتأليف ، وعرض عليه منصب قضاء المالكية ، ويعد بحق واضع أسس علم الاجتماع ولم يكن من أنصار الفلسفة فقد عقد فى مقدمته فصلا فى إبطال الفلسفة وفساد منتحليها . ونقد الغزالى والفخر الرازى .

وكان أصدق أصدقائه « وضاح بن مناذر » الذى كان يواسى وحشته ويحفظ له الوفاء ويسليه .

وقد شن تلاميذه وزملاؤه عليه حملات قلميـــة وخصومات حاقدة أمثال المقريزى والسخاوى والسيوطى وابن تغرى بردى .

وهو صاحب فلسفة القوة : « ثم أعلم أن الـكسب إنما يكون بالسعى فى الاقتناء والقصد فى التحصيل ، فلا بد فى الرزق من سعى وعمل . ولو فى تناوله

وابتغائه من وجوهه ، والسعى إنما يكون بإقدار الله تعالى وإلهامه ، فالكل من عند الله فلا بد من الأعمال الإنسانية فى كل مكسوب ومتحول لأنه إن كان عملا بنفسه مثل الصنائع فظاهر ، وإن كان مقتنى من الحيوان والنبات والمعدن فلا بد فيه من العمل الإنسانى وإلا لم يحصل ولم يقع به انتفاع »

* * *

وقد وصفه لسان الدين الخطيب بأنه بعيد عن التأنى وإن هذا الخلق كان سبب نكبته وتحامل رجال الدين عليه .

ولكن ابن خلدون على ما تكشف عنه ترجمة حياته التى كتبها تعطى صورة لشخصية ممتازة مليئة بالزهو والكبرياء والرغبة فى العلاء ، فهو رجل سياسى ولا شك قبل أن يكون مؤرخا ، فيه طابع السياسة كاملا بخيره وشره ، فيه الجرأة وفيه الطموح . وفيه إلى ذلك كله الذكاء والدهاء وبعد النظر .

فى الجانب الأدبى منه ترى أسلوبا رصينا وبراعة عرض ، وبلاغة بيان ، وقدرة على تعمق الأحداث ، وصراحة وحرية ، كانت لأجلها مقدمته من أعظم الآثار فى فلسفة التاريخ .

وإذا كان لابن خلدون مزية بارزة لا يبارى منها فهى أنه رفض أوهام من سبقه فى التاريخ وفهمه على أنه ليس طرائف أو حكايات ونظر إليه على أنه علم قائم على أساس المنطق ولذلك فقد رفض قصة العصافير التى تحمل الزيتون لتضعها على التمثال الموجود فى ميدان مدينة روما .

وقد توفى سنة ١٤٠٥ م

● إن الغزالى هو الوحيد من الفلاسفة المسلمين الذى انتهج لنفسه طريقا خاصا فى التفكير « رينان »

الغزالى

« لم أزل فى عنفوان شبابى منذ راهقت قبل بلوغ العشرين إلى الآن ، وقد أنافت السن على الخمسين ، أقتحم لجة هذا البحر العميق وأخوض غمرته خوض الجسور لاخوض الجبان الحذور ، وأتوغل فى كل مظلمة ، وأتهجم على كل مشكلة ، وأتقحم كل ورطة وأتفحص عن عقدة كل فكرة ، واستكشف أسرار مذهب كل طائفة لأميز بين محق ومبطل ، ومتسنن ومبتدع .

وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبى وديدنى ، من أول أمرى ، وريعان عمرى ، غريزة وفطرة من الله وضعتا فى جبلتى لا باختيارى وحيلتى حتى انحطت عنى رابطة التقليد وانكسرت على العقائد الموروثة على قرب عهد بسن الصبا .

ثم إنى لما فرغت من علم الفلسفة وتحصيله وتفهيمه وتزييف ما يزيف منه علمت أن ذلك أيضا غير واف بكمال الغرض ، وإن العقل ليس مستقلا بالإحاطة بجميع المطالب ولا كاشفا للغطاء عن جميع المعضلات .

... وكان قد ظهر عندى إنه لامطمع فى سعادة الآخرة إلا بالتقوى وكف النفس عن الهوى ، وإن رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا بالتجافى عن دار الغرور والأنابة إلى دار الخلود والإقبال بكنه الهمة إلى الله تعالى ، وإن ذلك لايتم إلا بالاعراض عن الجاه والمال والهرب من الشواغل والعوائق ، ثم لاحظت أحوالى ، فإذا أنا منغمس فى العلائق . وقد أحدقت بى من جميع الجوانب ، ولا حظت أعمالى وأحسنها التدريس والتعليم ، فإذا أنا مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة فى طريق الآخرة ، ثم تفكرت فى نيتى فى التدريس فإذا هى غير خالصة لوجه الله تعالى ، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت ، فتيقنت أننى على شفا جرف هار ، وأنى قد أشرفت على النار ، إن لم اشتغل بتلافى الأحوال ، فلم أزل أفكر فيه مدة ، وأنا بعد على مقام الاختيار ، مصمم العزم على الخروج من بغداد ، ومفارق تلك الأحوال يوما ، وأجل العزم يوما وأقدم فيه رجلا وأؤخر عنه أخرى ، لاتصدق لى رغبة فى طلب الآخرة بكرة ، إلا ويحمل طلبها جند الشهوة حملة فتغيرها عشية ، فصارت شهوات الدنيا تجاذبنى بسلاسلها إلى المقام ، ومنادى الإيمان ينادى : الرحيل الرحيل . فلم يبق من العمر إلا القليل ، وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتخييل ، فإن لم تستعد من الآن للآخرة فمتى تستعد ؟ وإن لم تقطع الآن هذى العلائق فمتى تنقطع ؟ فبعد ذلك ينبعث العزم على الهرب والفرار ، ثم يعود الشيطان ويقول : هذه حالة عارضة ، وإياك أن تطاوعها فإنها سريعة الزوال . فإن أذعنت لها وتركت هذا الجاه العريض ، والشأن الظلوم الخالى من التكدير والتنغيص ، والأمر المسلم الصافى من منازعة الخصوم ربما لا يتيسر لك المعاودة ، فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعى الآخرة قريبا من ستة أشهر ، آخرها رجب سنة ثمان وثمانين وأربمائة ، وفى هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى حد

الاضطرار ، إذ قفل الله على لسانى حتى اعتقل عن التدريس . فكنت أجاهد نفسى أن أدرس يوما واحداً تطبيبا لقلوب المختلفين إلىّ فكان لا ينطلق لسانى بكلمة ولا أستطيعها البته ، ثم أورثت هذه العقلة فى اللسان حزنا فى القلب بطلت معه قوة الهضم . وقرب الطعام والشراب ، فكان لا يستساغ لى شربة ولا تنهضم لى لقمة ، وتعدى ذلك إلى ضعف القوى ، حتى قطع الأطباء طمعهم فى العلاج وقالوا : هذا أمر نزل بالقلب ومنه سرى إلى المزاج فلا سبيل إلى العلاج إلا بأن يتروح السر عن الهم الملم .

ثم لما أحسست بعجزى وسقط بالكلية اختيارى التجأت إلى الله تعالى إلتجاء المضطر الذى لا حيلة له ، فأجابنى الذى يجيب المضطر إذ دعاه ، وسهل على قلبى الأعراض عن الجاه والمال والأولاد والصحاب .

وأظهرت عزم الخروج إلى مكة وأنا أدبر فى نفسى سفر الشام حذراً أن يطلع الخليفة وجملة الأصحاب على عزمى فى المقام بالشام فتلطفت بلطائف الحيل فى الخروج من بغداد على عزم ألا أعاودها أبدا واستهدفت للائمة أهل العراق .

ففارقت بغداد وفرقت ما كان معى من المال ولم أدخر إلا قدر الكفاف وقوت الاطفال ترخصا بأن مال العراق مرض للمصالح ثم دخلت الشام . . وأقمت بها قريبا من سنتين لاشغل لى إلا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة اشتغالا بتزكيه النفس وتهذيب الأخلاق وتصفية القلب لذكر الله تعالى .

وكنت أعتكف مدة فى مسجد دمشق ، أصعد منارة المسجد طول النهار وأغلق بابها على نفسى ، ثم رحلت إلى القدس أدخل كل يوم الصخرة وأغلق بابها على نفسى . . »

هذا أعظم حادث على وجه التحقيق فى حياة الإمام الغزالى ، تحولت به نفسه

وعقله وحياته من وضع إلى وضع ، وهذه الصفحة من مذكراته تكشف عن طبيعته وكيف أخذت تنتقل حثيثا من الفلسفة إلى التصوف إذ خلع « الغزالى » على أثر ذلك رداءه الذى اتشح به أربعين سنة وترك العلم ، وهجر بغداد ، وساح فى الأرض ، حتى بلغ منارة مسجد دمشق ، وبينها وبين الصخرة فى بيت المقدس ، وضع أعظم آثاره ، وأجل مؤلفاته « إحياء علوم الدين » الذى كان بعيد الأثر فى تاريخ دعوة الإسلام .

واستطاع الغزالى بكتابه « الاحياء » أن يفصل فى القضية التى ظلت أكثر من ثلاثة قرون موضع الخلاف بين أنصار الفقه وأنصار التصوف ، هذه القضية التى وصل فيها الخلاف أشده وأقصاه ، واتسعت فيها شقة الجدل ، وبلغت المساجلات أبعد حدود الهجاء والصراع[1] .

وكان كل من الفقهاء والمتصوفة يرى نفسه على الحق ، وقف الفقهاء ينقضون آراء الصوفية ويرونها زيفا فى الدين ، وقال الصوفية أن الفقهاء لا يؤمنون إلا بظاهر الشرع .

ثم جاء الغزالى لحسم المسألة ، وفصل فى القضية ، وقضى بأن الفقه والتصوف ليسا إلاشق الإسلام ، وأنهما لايصطدمان ولايختلفان ، وكان كتاب « الاحياء » صورة واضحة لهذا الفهم الجديد .

* * *

مفتاح حياة الإمام الغزالى هو البحث عن « الحقيقة » وقد كلفه هذا مشقة وأهوالا كباراً ، فقد قضى زهرة عمره باحثا منقبا ، مسافراً متنقلا حتى وصل أخيراً .

حاول الوصول إلى « الحقيقة » عن طريق العقل ، والمنطق ، والفلسفة ثم

---

(١) اقرأ فصل « بين الصوفية والفقهاء » فى كتابى أضواء على تاريخ الإسلام .

حاول ذلك عن طريق العلم والتصوف والروحية ، وظل يجرى بين موجات الشك العاصفة ، ولمعات اليقين الصادقة ، خلال فترة شبابه الحاد القوى .

وكان فى قلب بغداد وفى صدر المدرسة النظامية يتألق كعالم ، ولكنه كان فى صميم نفسه يقاسى موجات عاصفة ، وكان المنطق والعلم يضيقان بما يريد من فهم كنه « الحياة » .

وإذا به فجأة ، وعلى غير انتظار ، ينقطع عن الدرس ، وينعقد لسانه عن الكلام ، وينصرف عن الطعام ، ويدخل فى مرحلة عجيبة من الغيبوبة والتهويم .

ولم يجد مخرجا من هذا الحرج إلا أن يذهب إلى الحجاز ، ويعتزل التدريس ويدخل الخلوة ويعكف على الرياضة الروحية .

وكانت هذه الأزمة ولا شك ، قمة حياته العلمية التى أوشكت على الانتهاء لتبدأ حياة جديدة تقوم على الوجدان والروحية والتصوف .

ثم ترك الحجاز إلى دمشق، واعتكف فى منارة الجامع الأموى ، ولبس الثياب الخشنة ، وزهد فى الطعام والشراب فلم يكن يأخذ منهما إلا القليل الذى يعيش فيه .

وانتقل من دمشق إلى بيت المقدس ، وأقام فى المنارة الغربية من المسجد الأقصى وقضى بها وقتاً طويلا كتب فيه فصول كتابه الضخم « الاحياء » ثم رحل إلى الاسكندرية فأمضى بها فترة من الزمن ، ومن هذه الرحلة الطويلة تبلورت نفس الغزالى وتفتحت لفهم الحقيقة ، وانتهت الأزمة النفسية الضخمة التى ألمت بهذه الشخصية الكبرى .

قال « ثم جذبتنى الهمم ودعوات الأطفال إلى الوطن فعاودته بعد أن كنت

أبعد الخلق عن الرجوع إليه فآثرت العزلة به أيضاً حرصا على الخلوة وتصفية القلب ، ويبدو الإمام الغزالى خلال هذه الأزمة فى صورة الرجل الذى يستهدف الوضوح ويتجه إلى النور ، والذى يصر على أن يصل إلى ما يريد دون أن يعبأ أو يضيق بما يكلفه ذلك من أهوال .

وفى سبيل الغاية التى وطن عليها نفسه هاجر وانتقل وطوف ، وقضى أكثر من عشر سنوات فى ذلك الطواف .

وخرج وهو فى قمة الشك والاضطراب وانعقاد اللسان ، وعاد وقد انجابت عنه الأزمة وتفتح له طريق اليقين .

وقد هداه طول البحث إلى حل أزمتين : أزمة نفسه وأزمة الفكرة الإسلامية فهو حين قضى على الصراع النفسى الداخلى فى أعماقه قضى أيضا على الخلاف الذى نشب طويلا بين الصوفية والفقهاء ، وامتد زمنا واتسعت معه شقة الجدال والسجال فمزج بين الصوفية والفقه فى أسلوب بارع وطريقة واضحة .

وإذا كان قد فات الغزالى أن يجمع الأنصار وأن يكوّن الدعاة وهو حى ، فقد ظلت آثاره تجمع الأنصار طوال القرون المتوالية وترسم دستوراً للدعاة إلى الإسلام فى كل مكان .

* * *

وأبرز ما فى حياة « الغزالى » . . السفر والترحال ، وهو عند الباحثين النفسيين دليل الحيوية والقوة الروحية ، لا سيما فى ذلك العصر الذى كان الانتقال فيه غاية العسر وقطعة من العذاب .

فقد ولد بطوس وهاجر إلى جرجان فى مطلع شبابه ، حيث اتصل بالعلماء ثم عاد كرة أخرى إلى طوس وانقطع للعلم ، ثم ضاق بها ، فرحل إلى نيسابور واتصل

بالإمام الجوينى ، فأخذ عنه مذاهب الجدل والأصول والمنطق .

ومضى يدرس إلى أن قضى أستاذه ، ففارق نيسابور قافلا إلى بغداد ، حيث اتصل بنظام الملك الذى ولاه التدريس فى « النظامية » وتألق نجم الغزالى فى بغداد واتسعت حلقات دروسه .

ثم جاءت القارعة وتطورت حياته على النحو الذى كتبه بخطه فى اعترافاته التى أطلق عليها « المنقذ من الضلال » والتى تعد من أجرأ المذكرات الشخصية فى الأدب العربى .

لقد كان الغزالى حربا علمية ؛ غاية فى الصرامة والقوة والعنف ، على الباطنية فقد مزق آراءهم وسفه أفكارهم .

ولا يشك الباحث الذى يقرأ فصوله عن : السفر والزواج والمعاملة والصداقة أنه مجرب خبر الحياة وبلاها واتصل بها أوثق اتصال ، هذا إلى أنه رفع التصوف — بالقواعد التى قعّدها له — إلى القمة ، ونقاه من الأخطاء التى تجمعت حوله ، بل أنك لا تجانب الحق حين تقول إن الغزالى لم يدع مادة من علوم زمانه دون أن يحيط بها أو يتناولها بالدرس والنقد . وقد تبلورت هذه العلوم فى كتاب الاحياء بالذات

ولا يزال الغزالى — وسيظل — علما من أعلام الاسلام ، كما سيظل رمزاً على القوة النفسية التى تتمثل فى الرجل الذى آمن بهدفه فأمضى حياته سائحا فى سبيل الوصول إليه .

يقول رينان : « إن الغزالى هو الوحيد من الفلاسفة المسلمين الذى انتهج لنفسه طريقا خاصا فى التفكير » آمن الغزالى بضرورة الرجوع إلى القلب ، ودراسة الحقائق الآلهية بالذوق والكشف ، بعد تصفية النفس بالعبادات

والرياضات الصوفية ، محاولا إخضاع العلم والعقل للوحى والدين ، ولـكن الغزالى لم يصل إلى هذه المرحلة إلا بعد أن مر بمراحل مجهدة ، وصفها بأنها البحر العميق الذى خاض فيه خلال خمسين عاما بظلماته وأمواجه .

* * *

أجمع خصومه وأنصاره على السواء ، على أنه جدد شباب الإسلام وأعاد له سيطرته على القلوب والعقول والأرواح .

وهو يرى أن الشك الذى اعتوره زمنا هو مقدمة اليقين« فمن لم يشك لم ينظر ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقى فى العمى والضلال » .

وقد ألف «الغزالى» عدداً من الـكتب منها كتابه مقاصد المقاصد ، والمضنون به على غير أهله ، والرد على الباطنية وقد جعله على شكل إجابات على أسئلة وجهها إليه صديق كما نقض آراء الفلاسفة فى كتابه « تهافت الفلاسفة » وقد لفتت كتابات الغزالى أنظار الباحثين والمستشرقين فتناولوها بالدراسة منهم «دى هامير» فى ترجمة كتاب « أيها الولد » وترجم شمو لدرز نص رسالة المنقذ من الضلال . وقد نقلت كتبه إلى اللاتينية فى أواخر القرن الثانى عشر .

* * *

وبينما كان الغزالى مهاجراً إلى خراسان فى مطلع شبابه حيث اتصل بالعلماء وقع له حادث كان بعيد الأثر فى حياته كلها . قطع عليه العيارون الطريق وأخذوا جميع ما معه ، ومضوا فتعقبهم وكان لا يطمع فى أن يردوا إليه شيئاً سوى تعليقة كتبه .

قالوا : ما هى تعليقتك . .

قال : كتب فى المخلاه ، هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علومها . .

قالوا : لو أخذناها منك تجردت من معرفتها وبقيت بلا علم . .

قال : نعم . . . فأمروا أحدهم فسلم المخلاه إلى الغزالى ، وكان لهذا أثره فى نفسه فقد أقبل على حفظ ماحوته التعليقة فى ثلاث سنين ، قال : فصرت بحيث لو قطع على الطريق لا أتجرد من علمى .

يقول المراغى : إذا ذكر ابن العربى خطر بالبال رجل صوفى له فى التصوف آراء لها خطرها ، وإذا ذكر البخارى ومسلم وأحمد خطر بالبال رجال لهم أقدارهم فى الحفظ والصدق والأمانة والدقة ومعرفة الرجال . أما إذا ذكر « الغزالى » فقد تشعبت النواحى ولم يخطر بالبال رجل واحد ، بل خطر بالبال رجال متعددون ، لكل واحد قدرته وقيمته ، يخطر بالبال « الغزالى » الأصولى الحاذق الماهر . . . و « الغزالى » الفقيه الحر . . . و « الغزالى » المتكلم أمام السنة وحامى حماها ، و « الغزالى » الفيلسوف الذى ناهض الفلسفة وكشف عما فيها من زخرف وزيف . . . و « الغزالى » المربى . . . و « الغزالى » الصوفى الزاهد . وإن شئت فقل إنه يخطر بالبال رجل هو دائرة معارف عصره ، رجل متعطش إلى معرفة كل شىء ، يهيم إلى جميع فروع المعرفة .

وقد توفى الغزالى بطوس عام ١١١١ م .

● انما ليقف خاطرى فى المسألة أو الشيء أو الحالة التى تشكل على فاستغفر الله حتى ينشرح صدرى وينجلى إشكال ما أشكل .

ابن تيمية

ما رأيت « عالما » حارب فى كل ميدان وتلقى الضربات من كل فى معسكر، وجمع أسباب السيطرة والتفوق فى الفقه والكلام والتفسير كما وقع ذلك لتقى الدين ابن تيمية تلميذ ابن حنبل بحق في الصبر على المحنة واحتمال الأذى فى سبيل الرأى والصلابة فى الإصرار على الرأى مهما كلفه ذلك من ثمن .

فقد هاجم « ابن تيمية » جميع رجال عصره : الفقهاء والفلاسفة والصوفية والأشعرية وحاربهم جميعا بالحجة والدليل والبرهان ، فرموه عن قوس واحدة بالزندقة والمروق والكفر وألبوا عليه الخلفاء والأمراء فسجن فى القاهرة والاسكندريه ودمشق، ولم يكن يخرج من سجن إلا إلى سجن ...

وصمد ابن تيمية ولم يتزعزع ولم يرهبه السجن ولم يفت فى عزمته ، كان يدخل إليه ليخرج أشد صلابة وقوة ، ولا يلبث أن يعاود حملته من جديد .

وفى خلال أربعة عشر عاما من سنة ٦٩٨ إلى ٧١٢ هز ابن تيمية ميادين العلم فى مصر والشام ووقف للنصيرية والباطنية والروافض بالمرصاد .

* * *

ولد بعد سقوط « بغداد » فكأنما كان مولده نذيرا بهذه الحياة المليئة بالكفاح والصراع .

فقد عاش فى ذلك الجو الذى أخذ التتار فيه يحطمون القدرات الاسلامية بعد أن أطفأوا منار الخلافة فى بغداد . فأحس هو المعنى البعيد الذى توحى به هذه الأحداث : ذلك هو ضعف المسلمين عن فهم دينهم وعجزهم عن التمسك به وتصدع جبهتهم الموحدة .

هذه الفترة العصيبة أخرجت مولوداً عصبيا ، فكان « ابن تيمية » حاداً ،قوى العارضه ، غاية فى الجرأة ، دعا إلى العودة بالاسلام لبساطته الأولى ، بعد أن هاله ذلك التمزق فى الجبهة الاسلامية ، وكانت زوايا الصوفية ورباطاتهم وخوانقهم منتشرة فى كل مكان ، وآراؤهم المشوهة المضطربة تبلبل الأفكار ، وقد أخرجت الاسلام من بساطته إلى تعقيدات الحلول ووحدة الوجود .

وفرق الرفاعية فى دمشق وحلب ، والجيلانية فى العراق ، والشاذلية فى مصر كلها تسيطر على الرأى العام وعلى الأمراء ، وتتصارع فيما بينها ، ثم تتصارع مع الفقهاء . والفقهاء يتصارعون فيما بينهم ، والصراع محتدم بين الحنابلة والأشاعرة ، وبين الفقهاء والمتكلمين ، وبين المتكلمين والصوفية .

ووقف « ابن تيمية » بين هذه الفرق جميعا ليدعو إلى السنة الصحيحة . ولم يدخل الميدان إلا وقد أحاط بالثقافات المتعددة فى مختلف هذه الميادين ، وألم بفنون

الحديث ، وحفظ المتون ، وعرف الرجال وجرحهم وتعديلهم ، وأعانه على ذلك حافظة واعية وذاكرة قوية ، وذكاء مفرط ، صدق فى وصفه « ابن دقيق العيد » حيث قال :

«رأيت رجلا جمع العلوم كلها بين عينيه . يأخذ منها ما يريد ويدع ما يريد» .

وكان ذا عقلية مرتبة ؛ يورد فى جلسة واحدة ، أو خطبة واحدة . العديد من الأسانيد والأحاديث والآيات والحكم التى ينتظمها موضوع واحد .

وقد وصف « ابن تيمية » بأنه كان مهيبا ، أبيض اللون ، أسود شعر الرأس واللحية ، ربعة فى الرجال ، بعيد مابين المنكبين ، جهورى الصوت فصيحاً ، واسع العينين كأنهما لسانان ناطقان .

ومضى « ابن تيميه » يناهض البدعة فى العقائد والأحكام والعبادات ويكافح مبادىء الحلولية فى التصوف . واستنكر رأى الصوفية فى تقديس الموتى والأولياء ، وانكر على المعتزلة مسائل الصفات ، وأنكر على الفقهاء غلق باب الاجتهاد والوقوف عند قيود المذاهب الأربعة فلا يتخطوها . وأنكر على الفلاسفة إغرابهم ومغالطتهم وبعدهم عن بساطة الإسلام .

ولم يقف عند هذا ، بل اتجه إلى الناحية الإيجابية ، فخرج على مذهب الأشعرى فى الأصول ، ومذاهب الأئمة الأربعة فى الفروع .

وحارب خرافات الأحمدية بدخول النار وغيرها . وأفتى فى الطلاق ، بأن الطلقات الثلاث من غير تخلل رجعة تقع طلقة واحدة .

وبهذا فتح باب الاجتهاد على مصراعيه ، وقال ان نصوص الشريعه الإسلامية وافية بحاجات الناس ، وقال قول الإمام احمد : لا تقلدنى ولا تقلد مالكا ولا الشافعى . وتعلم كما تعلمنا » وبدأ حملاته على الصوفية ، بأن وجه إليهم

كتبا يطلب إليهم أن يعدلوا عن مسايرة عقائد الحلول والاتحاد ، مبينا لهم خطرها على الإسلام ، وأنها بدعة لم تأت فى كتاب .

وقد أرسل الصوفية هذه الكتب إلى شيخهم نصر المنيحى الذى كان محببا إلى أرباب الدولة فى القاهرة ، فاستعانوا بالولاة فى أن يقدم الشيخ إلى القاهرة وأدخلوا فى روع الأمير ركن الدين الجاشنكر أن ابن تيمية خطر على الدولة ، وقالوا له : إنه لو رأخى له العنان لأخرج المماليك من الحكم كما فعل ابن تومرت فى المغرب ، فعقدت له مجالس المناظرة فى دمشق ناظره فيها صفى الدين الهندى والزملكانى وكانت الغلبة لابن تيميه .

ثم استدعى إلى مصر وأثاروا عليه حملة واسعة قادها العلماء الذين جمعت بينهم الأهواء .

وقد حكم عليه بأن يلقى فى الجب معلقا بحبل ، ويبقى فيه عاما ونصف عام ثم خرج منه ، وما ازداد إلا إصراراً على رأيه وثباتا على عقيدته ثم حكم عليه بالسجن مرة أخرى بحبس العصاه ، ثم اعتقل فى برج الاسكندرية ثمانية شهور وعاد إلى دمشق بعد غيبة سبع سنين عنها ، وسرعان مادبرت له المؤامرات وانتهت فرصة إفتائه بما لا يعجب السلطان فحكم عليه بالسجن فى قلعة دمشق خمسة أشهر

* * *

وللسجن مع «ابن تتميه» قصص : عند ما اعتقل فى سجن الديلم عام ١٣٠٧م كان الناس يقصدونه فى سجنه فيعلمهم ويفتيهم .

وقد ألف فى السجن كتبا ورسائل ذكر فيها أحاديث وأقوالا من حفظه ولم يرجع إلى كتاب ، ولم يستشر حافظا .

قال ابن عبد الهادى : لما دخل الحبس وجد المحابيس مشتغلين بأنواع من اللعب يتلهون بها عما هم فيه كالشطرنج والنرد . فأمرهم بملازمة الصلاة والتوجه إلى الله بالأعمال الصالحة والتسبيح والاستغفار والدعاء وحضهم على عمل الخير حتى صار الحبس بما فيه من الاشتغال بالعلم والدين خيراً من الزوايا والربط والخوانق والمدارس . وصار خلق من المحابيس إذا أطلقوا يختارون الاقامة عنده : وكثر المترددون عليه حتى كاد السجن يمتلىء بهم . .

وقد انتقل « ابن تيميه » من سجن إلى سجن ، فهو فى مصر سجين المصاه بحارة الديلم قريباً من الأزهر ، وفى الاسكندرية فى برج مطبق له شباكان أحدهما إلى جهة البحر .

وعند ماسجن فى دمشق ظل يكتب ويؤلف حتى رأى خصومه أن يضيقوا عليه ، فاخرجوا ماعنده من الكتب والأوراق والدواة والقلم ومنع من الكتابة والمطالعة وحملت كتبه إلى خزانة الكتب بالعادليه فلما كانت ليلة عيد الفطر نقلوه إلى الجب ، ولم تطل أيام ابن تيميه بعد هذا التضييق فى السجن .

وكان طبيعياً أن يلقى « ابن تيمية » هذه الحملات وأن يظل موضع الحقد من السلاطين والحكومات والعلماء . ولكن « ابن تيمية » كان صلب العود ، لقد واصل حملاته طوال حياته قوية جبارة ، يصدر فيها عن عمق اطلاع وسعة فهم وأصالة فى قيادة المساجلات .

وفى كل مرة من المرات التى عقدت له مجالس المحاكمة ، خمس مجالس ، كان يخرج منتصراً ، وفى السجن كان يعلم العامة ، ويعكف على كتاباته ومطالعاته حتى أنه وضع تفسيره للقرآن فى ثلاثة أجزاء وهو فى قبو مظلم رطب تحت الأرض وكان يعاود عرض أرائه واعلانها للناس مرة فمرة ، حتى يغرسها فى عقولهم

فاذا لقى الاضطهاد والعنف انطوى ، حتى تسكن الفتنة ، ثم يعاود الكرة فيتابع آراءه مرة أخرى ، فتقوم عليه الثورة .

ولا شك كان للاحقاد التى يؤججها العلماء نحو « ابن تيمية » لبروز عبقريته وشهرته وعلمه ، أبعد الأثر فى تأريث نار الفتنة والنقمة عليه . ولم تكن آراؤه تنقل على حقيقتها ، بل كانت تحرف وتؤول وتفسر وتدس عليه أقوال ليست له .

وفى المرحلة الأخيرة من حياته أمضى فى محنته أكثر من ثلاث سنوات وجرد من أوراقه وكتبه وظل فى محبسه حتى توفى فى ٢٧ سبتمبر ١٣٢٨ .

* * *

ولم تكن حياة « ابن تيمية » صفوا ، بل كانت حافلة بالمتاعب ، ففى الفترات التى كان تخرج فيها من سجنه ، كانت العامة تلاحقه بالأذى ؛ بل أن بعض العلماء تربصوا به مع بعض الغوغاء ، وانتهزوا فرصة مروره بأحـــد الأمكنة الخالية من العمران وضربوه ضربا مبرحا ، وظل يحتمل ذلك صابراً :

وقيل أنه كان اذا خرج إلى المسجد يكتنفه الواشون من كل جانب ويسد عليه الغوغاء منافذ السبل وهو يتقبل عوادى الأيام بصدر رحب ، وظلت أبواب بيبرس مغلقة فى وجهه وكان سلاطين المماليك يخشون نفوذه ويعملون على تحطيمه .

وبالرغم من هذا الاضطهاد فإنه لم ينس واجبه عند ماهاجم التتار حدود الشام ، فقد ركب فرسه . ومضى يحث الناس على الجهاد وشهد موقعة (شقحب)

وكان عاملا هاما من عوامل انتصار المسلمين على التتار :

ومضى « ابن تيميه » يحث الناس على الجهاد ، ويحرضهم ، ويدعوهم إلى الشهادة فى سبيل الوطن والحرية .

وحارب الروافض بالسيف فى جبل كسروان ، وقد عرف بالشجاعة البالغة وثبات الجنان والبراعة فى ركوب الخيل والطعن ، وكان لسانه ألبق يدفع عن النفوس الهلع ، وينشر الشجاعة والحمية فى صفوف المحاربين .

ووقف فى هذه المعارك موقف الموت فكان قدوة للناس الذين كانوا يتدافعون تحت اللواء يقتلون و يُقتلون .

وكان من أشجع الناس قلبا وأثبتهم جنانا حتى فى الساعات الحاسمة التى كانت تزيع قلوب فريق من الناس . وكان إذا حضر فى عسكر المسلمين فى جهاد يكون بينهم إذا رأى هلعاً من بعضهم او جبنا شجعه وثبته وبشره ووعده بالنصر والغنيمة وبين له فضل الجهاد والمجاهدين ، وكان إذا ركب الخيل يجول فى العدو كاعظم الشجعان ويقوم كأثبت الفرسان ، ويخوض المعركة خوض رجل لا يخاف الموت وقد رأوا منه فى فتح عكا أموراً من الشجاعة يعجز الواصف عن وصفها .

ولم يقف أمر « ابن تيمية » عند هذا الحـــد ، بل أنه ذهب إلى الامراء والسلاطين فى مصر يشجعهم على الجهاد فى سبيل الله ويحثهم على إرسال الكتائب لتقاوم الغارة .

* * *

يقول الذهبي « لو حلفت بين الركن والمقام لحلفت ما رأيت بعيني مثله » وأن له خبرة تامة بالرجال وجرحهم وتعديلهم وطبقاتهم ومعرفة بفنون الحديث وبالعالى والنازل والصحيح والسقيم مع حفظه لمتونه فلا يبلغ أحد فى العصر رتبته أو يقاربه . وله فى استحضار الآيات من القرآن وقت إقامة الدليل بها على المسألة قوة عجيبة » .

وقد كان نادرة زمانه فى قوة حافظته وآية ذلك رسائله التى ألفها وهو فى السجن

أو فى الطريق بعيداً عن المراجع والمصادر وقد ألف بعض رسائله بين الظهر والعصر.

وقد حدث عن نفسه بأنه ليفف خاطره فى المسألة او الشيء أو الحالة التى تشكل عليه فيستغفر الله تعالى حتى بنشرح صدره وينجلى إشكال ما أشكل .

وقيل أنه سئل مرة نظما فى لغز عن الأسد فأجاب حالا بقصيدة له من مائة بيت أو تزيد على هذا اللغز .

وقد بلغ ما كتبه فى التفسير نحـوا من ثلاثين مجلداً ضاع أغلبه فى خلال اضطهاده إذ كانوا يبحثون عنه ليحرقوه . ولما حبس تفرق أتباعه ونفرقت كتبه .

وقال عن نفسه : ربما طالعت على الآية الواحدة مائة تفسير ، ثم أسأل الله الفهم ، وأقول يامعلم آدم وابراهيم علمنى ، وكنت أذهب إلى المساجد المهجورة ونحوها فأمرغ وجهى فى التراب سائلا الله أن يعلمنى .

* * *

وكان سخيا كريما ؛ إذ أتاه طالب حاجة سارع لقضائها ، وكان شديد الايثار مع فقره ، فقد كان يتصدق حتى إذا لم يجد شيئا نزع بعض ثيابه فوصل بها الفقراء ويستفضل عن قوته الرغيف أو الرغيفين .

وقال صفى الدين البخارى : أما ورعه فكان من الغاية التى لا ينتهى إليها فى الورع ، فما خالط الناس فى بيع ولا شراء ولا معاملة ولا تجارة ، ولا كان ناظراً أو مباشراً لمال ، ولا يقبل جراية ولا صلة لنفسه من سلطان أو أمير أو تاجر ، ولا كان مدخراً ديناراً ولا درهما ولا متاعا ولا طعاما ، ولا زاحم فى طلب الرياسات ولا رؤى ساعيا فى تحصيل المباحات مع أن الملوك والأمراء والتجار والكبراء كانوا طوع أمره خاضعين لقوله .

وقال الحافظ بن فضل الله العمرى أنه كانت تأتيه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة فيهب ذلك بأجمعه ويضعه عند أهل الحاجة فى موضعه ، ولا يأخذ منه شيئا إلا ليهبه ، ولا يحفظه إلا ليذهبه .

وقد كانت دراسته لشخصيات التوراة مرجعا لكل من حاول دراسة هذا الموضوع من بعده .

. . .

ولقد كان ابن تيميه نسيج وحده فى الخلق ، من ذلك الصنف الذى لا يؤمن باللباقة أو المجاملة فى سبيل الحق الذى يعتقده ، بل يقول رأيه فى صراحةوجرأة دون أن يبالى ان أغضب الناس أو الحكام أو العلماء . وقد أتعب الجند وحير الفقهاءوألفه السجانون .

وقد أحيا روح الجهاد بعد أن ماتت ، وحاول اصلاح التصوف وفتح باب الاجتهاد فى الفروع ، وكان يجمع بين العلم والعمل ، ومما يؤخذ عليه شدته على الفلاسفة وأنه لم يحاول اصلاح طريقه الحكم ، وكانت قد وصلت إلى حد بعيد من السوء .

وقد عرف بإعراضه عن طلب الرياسات ، ولم يقبل أن يكون ظلا لأمير أو سلطان، بل إنه ظل طوال حياته يرفض اعطياتهم .

. . .

ولا شك أن « ابن تيمية » كان «رجلا» وانسانا ممتازا ، كان عالما قوى الحجة وفارسا يصول كأعظم المجاهدين ، لا يؤمن بأساليب السياسة فى العلم ولا يتوانى عن قول الحق دون مواربه .

فلما مات شيعة الناس زمراً ، وحضر دفنه مائة الف رجل وخمسة عشر ألف امرأة — فيما ترويه الآثار ، وكسر العامه أعواد نعشه ودفن فى مقابر «الصوفيه».

● لا يوجد معنى تبحث النفس عنه لتجد له قالبا لائقا إلا وجد الإنسان عليه بيتا من شعر المتنبي .

المتنبي

● سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا ... بأنني خــير من تسعى به قدم

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي ... وأسمعت كلماتي من به صمم

● الخيل والليل والبيداء تعرفني ... والسيف والرمح والقرطاس والقلم

● فارم بي ما اردت فأني ... أســد القلب آدمي الرواء

وفؤادي من المــلوك ... وأن كان لساني يرى من الشعراء

● ومن عرف الأيام معرفتي بها ... وبالناس روّى رمحه غير راحم

● ما كل ما يتمنى المرأ يدركه ... تجرى الرياح بمالا تشتهى السفن

غـيران الفتى يلاقى المنايا ... كالحات ولا يلاقى الهــوانا

● تحقر عندي همتي كل مطلب ... ويقصر في عيني المدى المتطاول

ومازلت طوداً لاتزول منا كبي ... إلى أن بدت للضيم فيّ زلازله

- ما بقومى شرفت بل شرفوا بى — وبنفسى فخرت لا بجـدودى
وبهم فخر كلّ من نطق الضاد — وعوذ الجانى وغوث الطريد
- يقول لى الطبيب أكلت شيئاً — وداؤك فى شرابك والطعام
وما فى طبه أنى جواد — أضر بجسمه طـول الجمام
فان أمرض فما مرض اصطبارى — وأن احمم فما حم اعتزامى
وأن أسلم فما أبقى ولـكن — سلمت من الحمام إلى الحمام
- وإذا كانت النفوس كباراً — تعبت من مرادها الأجسام
- وإذا أتتك مذمتى من ناقص — فهى الشهادة لى بأنى كامل
- لولا العلا لم تجب بى ما أجوب بها — وجناء حرف ولا جرداء قيدود
- يقولون لى ما أنت فى كل بلدة — وما تبتغى ؟ ما ابتغى جل أن يسمى
- أنام ملء جفونى عن شواردها — ويسهر الخلق جراها ويختصم
- لا تحسبن المجد زقا وقينه — فما المجد إلا السيف والفتكة البكر
وتركك فى الدنيا دويا كأنما — تداول سمع المرء أنمله العشر
- وإنى لمن قوم كأن نفوسهم — بها أنف أن تسكن اللحم والعظما
- وما الدهر إلا من رواة قصائدى — إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً
فسار به من لا يسير مشمراً — وغنى به من لا يغنى مفرداً
- ومراد النفوس أصغر أن من — نتعادى فيه وأن نتفـانى
غير أن الفتى يلاق المنايا — كالحات ولا يلاقى الهـوانا
- عش عزيزاً أو مت وأنت كريم — بين طعن القنا وخفق البنود

واطلب العز فى لظى وذر الذل ولو كان فى جنان الخلـــود

• وهكذا كنت فى أهلى وفى وطنى إن النفيس غريب حيثما كانا

* * *

من جماع هذه الأبيات تبدو « ملامح » المتنبى فى شخصيته الضخمة الباهرة ! حقا ؛ كم هى رائعة شخصية هذا الرجل العملاق الذى وصف نفسه بهذه العبارة البليغة : وفؤادى من الملوك وإن كان لسانى يرى من الشعراء .

الرجل الطموح الذى عاش حياته يبحث عن المجد وينشره ، وقضى ولم يحقق أمله ، وان خلف شعراً كتب له اسما عريضا فى تاريخ العربية كلها فقد ترك دويا كأنما تداول سمع المرء أنمله العشر .

هذا الرجل الذى أتيح له أن يبرع فى المديح والهجاء معاً على صورة غاية من القوة والحيوية ، والذى طمع فى البيعة بالنبوة ، ثم البيعه بالخلافة ثم ظل طموحه فى الرياسة والملك طوال حياته .

لقد كان موضع اعزاز الملوك وتكريمهم ، ولـكنه كان يطمع فوق ما يستطيع الملوك . فانتهى به ذلك إلى النقمة والتمرد ، واختلف مع سيف الدولة ، وكافور وعضد الدولة .

ولقد بذلوا له من المال فوق ما يطمع فيه الشعراء ، ولـكن المتنبى كان يطمع فى شىء آخر : كان يطمع فى الولاية . غير أن الملوك كانوا يخشون سلطان شخصيته الآسر أن يحكـمه بعد فى أعناقهم فأصموا آذانهم عن أمنيته الغالية .

وغاية ما يملأ النفس من شخصية المتنبى أنه قضى حياته يطلب المجد ويسعى إليه لا يكل ، وأنه كان فى خصوماته وصداقاته ، وتنقله من حاشية أمير إلى أمير ، ومن قطر إلى قطر ، إنما يسعى تحت ضغط رغبته العليا .

كان يؤمن بشخصيته إيمانا كاملا ، يؤمن بأنه عظيم ، وأنه خلق ليحتل مركزا خطيراً فى الحياة . بصرف النظر عن الاحساب والانساب .

وهو أول من آمن بالعصامية التى تعتمد على الكفاح الفردى ، وبأن الشخصية يجب أن تنفصل تماما عن الوراثة ومجد الآباء . وأنها يجب أن تقوم على دعامة الذكاء والقوة المعنوية وحدها .

وليس شك أنه فتح بذلك باب الطموح . وقضى على أوهام المجد الزائف المستمدة من الانساب ، وكان فى خلال حياته كلها عالى الخلق متينه ، لم يعرف اهواء النساء ، ولا مجالس اللهو ولم يشرب الخمر . وكان عفيفا عن الصغائر والدنايا كأنما خلقت نفسه الطموحة مجردة عن كل ما يشوب الانسان الكامل . كان عزوفا عن كل شىء كأنما كانت مطامحه أكبر من الغزل أو السمر مع أصحاب الكأس والطاس .

ملأ صدره أمل كبير . كان هو كل شىء فى حياته فقد ظل يؤرقه ويزعجه فلا يدعه يستقر . ويصف نفسة بانها اتعبت الجسم من مرادها .

وقد لقى المتنبى فى حياته الكثير من المتاعب والأهوال والآلام فى سبيل المجد الذى كان يطمح إليه . ومن جراء الأحقاد التى كانت تحوطه دائما من خصومه واضطره نكد الدنيا أن يصادق عدوه ، وأن يبسم فى وجه من يكره من الناس ، ودفعه إلى هذا أن الحياة بخلت عليه بما يريده . وأنه عندما جاءها مستشفيا أمطرت عليه مصائبا .

آمن بنفسه ، ولكنه لم يذهب مذهب المتجملين والمتواضعين ، وانما ذكر نفسه وسجل فضله . فهو الذى نظر الأعمى إلى أدبه واسمعت كلماته من به صمم ، والخيل والليل والبيداء تعرفه .

وقد أنشد هذا بين يدى سيف الدولة الذى ضاق به ، ورماه بالدواة ، فسال المداد على ثيابه ، ومع ذلك فقد ظل شامخ الرأس ، كأنه لم يمسه أذى وما زاد عن أن قال :

إن كان سركم ما قال حاسدنا فما لجرح إذا أرضاكم ألم

وهنا ضمه سيف الدولة إليه . وعانقه وأجلسه بجانبه .

ومضى المتنبى يضرب فى الأرض ، يتعرض للمتاعب ويقول :

غير أن الفتى يلاقى المنايا كالحات ولا يلاقى الهوانا

وظل المتنبى طوال حياته يسعى إلى أمله ، ثم لا يصل إليه ، فيحس أنه لا يعطى من دهره ما يريد .

وبالرغم من أنه شاعر مداح فقد كان لشعره صورة مفردة ، كان أنشودة المجاهدين إلى حرب الروم يروى نفوسهم بالإيمان والقوة والفداء فى سبيل الدفاع عن أرضهم ودينهم ، وقد بلغ المتنبى إلى حد التبريز فى المديح والهجاء معا ، وهو ما لم يتوافر لغيره من الشعراء ، وكان يصدر فى مديحه وهجائه عن إيمان وعقيدة . فهو لا يقلد ولا يذهب مذهب المجاملة ، فإذا أحب أحب بكل عاطفته ، وبلغ قمة الحب والإعجاب ، وظهر ذلك فى شعره واضحا ، وإذا خاصم فبكل عواطفه ، ويظهر هذا فى هجائه لكافور !

إنى نزلت بكذابين ضيفهم عن القرى وعن الترحال محدود

جود الرجال من الأيدى وجودهم من اللسان فلا كانوا ولا الجود

وقد أسلمه ما صادفه من مؤامرات وخصومات إلى الشك فى الناس والاعتقاد

بأنهم لايقدرونه قدره ، يظهرون له غير ما يبطنون ومن ثم تحولت نفسيته إلى مزيج من الألم والحزن والتشاؤم .

ولما صار ود الناس خبا   حزيت على ابتسام بابتسام
وصرت أشك فيمن اصطفيه   لعلمى أنه بعض الأنام
وآنف من أخى لأبى وأمى   إذا ما لم أجده من الكرام

ولقد مرض بعد أن رأى من مراوغات كافور ما أفسد عليه مشاعره وبدل ثقته فى الناس كفرانا ، فكان يطوى جسمه بالحشايا ، ويقول : أوقد النار يا مسعود ، إن ثلوج الشام تتساقط على فراشى وتنفذ إلى مسارب جسمى . ولم يكن مرضه الا خيبة الأمل بين حلب والقاهرة فقد كان كافور — كما كان سيف الدولة يخشيان من طموح المتنبى ويخافان قوة شخصية . وكان هو يطمع فى ولاية من الولايات حتى إن كافور قال ذات مرة : إنه فى الفقر سمت نفسه إلى النبوة فكيف إذا أصاب الولاية . وهكذا عاش المتنبى مطوفا فى الآفاق تجيش نفسه بالمجد والأمل والمطامع ، فلم يبق عنده متسع للحب أو المرأة . إلا قصة حب ظلت منطوية فى أعماقه لا يستطيع أن يكشفها هى حبه لخولة أخت سيف الدولة .

* * *

ولنعد إلى قصة حياة أبى الطيب من أولها فهى حياة خصبة عريضة .

لقد نشأ بالكوفة منتقلا بين الوراقين ، محبا لمجالس العلماء ، يتلقى أصول الجدل واللغة . وسافر إلى بغداد عام ٣٢٠ غير أنه ضاق بها نظرا للصراع بين الموالى والولاة بها ، ثم ارتحل إلى بادية الشام فهبط دمشق ، ومر بحلب وانطاكية ، واللاذقية . ثم مضى إلى طرابلس وهو خلال ذلك يمدح ويهجو .

ثم وصل إلى اللاذقية حيث قيل عنه إنه أدعى النبوة ، فحبسه أمير حمص حتى استتاب ، وكان ذلك نتيجة لحقد الشعراء والعلماء على سمته ومظهره وشعره .

فلما خرج من سجنه اتجه نحو سيف الدولة أمير حلب ، حيث بدأت الصلة بينه وبين الأمير الأديب البطل الفارس ، الذى عاش يحارب الروم ويقاومهم ويديل منهم ويقف سداً منيعاً فى وجه تطاولهم على حدود الإمبراطورية الإسلامية .

وبقى المتنبى فى حلب ثمان سنوات (٣٣٧ — ٣٤٥) كانت عنده أروع سنوات حياته وأخصبها ، وأميزها من ناحية تقدير سيف الدولة له ، وعمله كشاعر يدفع المجاهدين إلى ميدان الحرب بحداء رائع يملأ النفوس قوة وحيوية .

لقد قال أروع شعره فى هذه الفترة ، فى تصوير الوقائع والمعارك ، كان يحضر مع سيف الدولة حروبه البيزنطية ويبدى بطولة فيها فقد كان فارسا مغواراً .

ولـكن الدس والوقعية أفسدت عليه طيب هذه الحياة ، بالإضافة إلى تعاليه وكبريائه حتى قيل أن سيف الدولة قد ضاق بكبرياء المتنبى . وأنه لم يبد كبير اهتمام عند ما رآه فى مجلسه يحاور أبا عبد الله بن خالوية النحوى ، وما زال الشاعر بالنحوى يرده حتى أفحمه . فسحب ابن خالوية من كم قميصه مفتاحا من حديد أشار به إلى أبى الطيب . ثم لم يلبث أن ضرب به وجـه المتنبى حتى سال دمه على خده وثيابه ، وكان سيف الدولة يسمع ويرى غير عابىء بغضبه وكأنما كان هذا علامة النهاية مع سيف الدولة ...

وخرج المتنبى بعد تسع سنوات (٣٤٦) ﻫ يحث الخطا مغلوبا متجها إلى دمشق حيث دعى إلى لقاء « كافور » فى القاهرة .

وقد أقبل المتنبى على كافور فاحتفى به ، لأنه وهو العبد الأسود المثقوب الشفة السفلى البطين كما وصفه المؤرخون ، كان يريد أن يتسامى إلى مقام من مدحهـم

المتنبى ، إلى مقام سيف الدوله الحمدانى الفارس البطل ، لذلك فقد أكرم أبا الطيب وأمر له بمنزل ووكل به من يخدمه . ولما وقف المتنبى بين يدى الأخشيدى ينشد شعره ، كان يحس بالعنت وهو ينظم هذه القصائد، غير أن المتنبى كان يطمع فى أن يتحقق أمله عند كافور بأن يمنحه ولاية وقد وعده بذلك وماطل .

ولم يلبث المتنبى أن وجد الجو الخانق من الحساد والأعداء ، كما لقيه من قبل فى حلب الشهباء ، فضاق بمصر ، وأعدّ العدة للرحيل ، ولكن كافور رفض أن يدعه وحرص على أن يمسكه ، فخرج ليلا ، يطوى الفلاه فى ابله وخيله وماله ، لا يدرى فى أول أمره أين يتجه ثم لا يلبث أن يقصد العراق ، بعد أن أقام فى مصر أربع سنوات .

وهكذا فقد المتنبى أمله عند سيف الدولة وعند كافور على السواء ، ولم يلبث أن هجا كافورا هجاءً مقذعا .

وعاد إلى الكوفة فى ختام رحلة طويلة بعد أن غادرها منذ ستة عشر عاما ، وأقام بها حينا يستخفه الحنين إلى سيف الدولة الذى أرسل إليه يدعوه ، ولكنه ظل متردداً يرسل إليه بشعره ، ولكنه لا يريد أن يعود .

ثم غلب عليه القدر فاتجه إلى بغداد ، ففارس ، حيث زار بن العميد فى أرجان فعضد الدولة بن بويه ورفض زيارة الصاحب بن عباد فى اصبهان ، وفيما هو عائد من شيراز ، وقد رفض اصطحاب الحراس اعتداداً بنفسه ، خرجت عليه سرية من الأعراب ، فلقى مصرعه مع ابنه محسد وبعض غلمانه واقتسم الأعراب ماله وذلك فى ٢٨ رمضان ٣٥٤ هـ

* * *

وهكذا انقضت حياة ابى الطيب فى المغامرات والمنازعات فكانت سلسلة من

الشدائد والأحقاد ، وهو فى إبان هذه المعركة الضخمة الممتدة فى عمر بلغ واحداً وخمسين عاما ، مرفوع الرأس ، أبى الضيم ، يدخر المال ليجعله عونا على الأيام وحتى لا يذل لمخلوق . ذى روح أبية جباره ، ونفس يرفعها فوق رءوس البشر ، صريحا شجاعا .

وقد وصف بأنه مقل لا يبذل المدح لكل من يلقاه ، وقد ترفع عن بعض الوزراء كالمهلبى والصاحب بن عباد ، فأثار عداوتهما ، بل أنه كان يتأخر أحيانا عن مدح سيف الدوله حتى يشق عليه ، وكان إلى ذلك نادرة فى الحفظ مكبا على التحصيل منذ نعومة أظفاره . يكثر من ملازمه حلق الأدب ومكاتب الوراقين .

قال رجل كان يصحبه من أهل الشام أنه لما جن الليل « قدمت له شمعة وأمر برفع دفاتر ، وكانت تلك عادته كل ليلة فجعل عينه الى الدفتر يدرس ولا يلتفت إلينا حتى مضى من الليل أكثره » .

وقد كان واسع الاطلاع محيطا بأخبار العرب وأشعار المتقدمين بصيراً بفنون الكلام وقد اشترط لنفسه أن يقول شعره جالسا عند سيف الدولة ، ويقوله وهو متقلد منطقة وسيفا عند كافور .

ومع ذلك فقد عاش فى القاهرة ثلاثة أعوام ، دون أن يكتب حرفا واحداً عن جمالها ولم يصف نهرها العظيم ولا اهراماتها الشماء ، ولم يلفت نظره حسنها الباهر فقد كان فى شغل عن الدنيا بأمله …

ولكن الفتى العربى فيها غريب الوجه واليد واللسان

ملاعب جنة لو سار فيها سليمان لسار بترجمان

ويسأل نفسه : يقولون لى ما أنت فى كل بلدة : ما تبتغى ؟

ويجيب : ما أبتغى جل أن يسمى ؛

وكنت إذا يممت أرضا بعيدة   سريت فكنت السر والليل كاتمه

ولما ضاق بالحاسدين والكائدين الذين لقيهم فى مصر وحلب وبغداد والكوفة وشيراز روى رمحه ولكنه لم يطعن به « ومن عرف الأيام معرفتى بها .. الخ » .

وهو يعلم أن القدر يقف ضد آماله :

أهم بشىء والليالى كأنها   تطاردنى عن كونه وأطارد

وحيد من الخلان فى كل بلدة   إذا عظم المطلوب قل المساعد

ويصف قلبه الطموح الذى لا تنتهى آماله :

من الناس من يرضى بميسور عيشه   ومركوبه رجلاه والثوب جلده

ولكن قلبا بين جنبى ماله   مدى ينتهى بى فى مراد أحده

وقد دفعته الظروف كلها إلى أن يخرج هاربا سواء من القاهرة أو من حلب أو من بغداد .. تحت جنح الظلام .

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا   ألا تفارقهم فالراحلون هم

شر البلاد بلاد لا صديق بها   وشر ما يكسب الانسان ما يصم

وقد انتهى به الأمر أن أحس بالدنيا رزءاً لا يحتمل ومجموعه من عناصر اللؤم والنكر والظلم :

رمانى الدهر بالأرزاء حتى   فؤادى فى غشاء من نبال

فصرت إذا أصابتنى سهام   تكسرت النصال على النصال

● لم ارقط ولا سمعت من احب الكتب والعلوم اكثر من الجاحظ فانه لم يقع بيده كتاب قط إلا إستوفى قراءته ، كائنا ما كان ، حتى أنه كان يكترى دكاكين الوراقين ويبيت فيها .

الجاحظ

روى أنه كان يسير مرة فى شوارع بغداد بعد أصبح أكبر كتاب عصره ، حين نادت عليه امرأة لا تعرفه وقالت له أنها تلقت من زوجها المسافر خطاباً وهى لاتعرف القراءة وسألته أن كان لا يرفض أن يقرأه لها فوافق، فأجلسته فى دكان نجار بينما تذهب إلى بيتها القريب وتحضر الخطاب، وطال الجلوس به والمرأة لا تعود وإذا به يعرف الحقيقة : أن المرأة أجلسته إلى النجار الذى طلبت منه أن يصنع لها عفريتا من الخشب يشبهه لكى تخيف به أطفالها .

* * *

لقد كان الجاحظ من أصحاب النفوس المشرقه المتفائلة ، وكانت الدعابه من طبعه والسخرية على لسانه ، خفيف الظل ، ليس متزمتا ولا متنسكا أمدته أسفاره ومعرفته للناس واتصاله بمختلف الطبقات والطوائف بالقدرة على فهم النفس

البشريه واكتناه أعماق الإنسان وهو إلى ذلك حلو الحديث حسن المحاضره، سريع النكته .

سافر إلى دمشق وانطاكية ، وكان هذا كله أداته حين صور حيل التجار وأساليب المتسولين وزندقة المتزندقين ، وله كتاب أطلق عليه حيل لصوص النهار وسراق الليل كما وصف نوادى القمار وعمل الحياطين وقد اتخذ من السخرية سبيلا يكشف به عيوب الناس ويفصح دخائلهم ، وقد استعمل الرمزية فى مهاجمة خصومه فكان يصور أحوالهم ويغير اسمائهم .

لم يتزوج ولم يؤكد علاقته بالمرأة ، ولكنه كان خبيراً مجربا ، دافع عنها فى كتاب « الحرائر والأماء » وفى رسالته عن النساء يقول :

«ورايت أكثر الناس من البصراء بجواهر النساء الذين هم جهابذة هذا الأمر يقدمون المجدولة ، والمجدولة من النساء تكون منزلة بين السمينة والمشوقه ، ولا بد من جودة القد ، وحسن الخرط ، واعتدال المنكبين ، واستواء الظهر ، ولا بد من أن تكون كاسية العظام بين الممتلئة والقضيفة وإنما يريدون بقولهم مجدولة ، جودة العصب وقله الاسترخاء ، وأن تكون سليمة من الزوائد والفضول ، ولذلك قالوا خمصانه وسيفانه ، وكأنها جدل عنان ، وكأنها قصب خيرزان والتثنى فى مشيتها أحسن ما فيها ولا يمكن ذلك الضخمه والسمينة وذات الفضول والزوائد على أن النحافة فى المجدولة أعم وهى بهذا المعنى أعرف» .

والجاحظ بالرغم من دمامته كان يحمل قلبا من ذهب، ونفسا رقيقة شفافة محبة، يقول « ماضاء على نهار . ولا دجا ليل منذ فارقتك ، إلا وجدت الشوق إليك قد حرق كبدى. والأسف عليك قد اسقط فى يدى ، والنزاع نحوك قد خان جلدى، فأنا بين حشا خافقه ،ودمعة مهراقة ، ونفس قد ذبلت بما تجاهد، وجوانح قد ابليت بما تكابد » .

وقد وصف القيان وصفاً يدل على مدى تعمقه فى فهم هذا الصنف من النساء : « أن القينة لا تكاد تخلص من عشقها ، أو تناصح فى ودها لأنها مجبولة على نصب الحبالات والشراك للمتربصين ليقعو فى انشوطتها . ذلك لأن حبهن كاهن كذوب ، وعشقهن مبدل غير ثابت » .

وقال : وكيف تسلم القينة أو يمكنها أن تكون عفيفة وهى إنما تنشأ بين الخلعاء والمجان ومن لا يسمع منه كلمة خير، وتروى الحاذقة منهن أربعة آلاف لحن فصاعدا بنيت كلها على ذكر الزنى والقيادة والعشق والشوق .

* * *

ذلك هو الجاحظ الخبير بالحياة العميق الفهم لطبيعة المرأة ، المحب العاشق .

بدأ حياته فى البصرة فقيرا يتيما ، توفى والده وهو حدث السن فراح يعيش بعمل بيده .. ومضى يعلم نفسه بنفسه ، فلما اجتمع له قدر صالح من الثقافة قصد إلى بغداد .

وقد بلغ به الأمر ان أصبح دائرة معارف حية ، وعى فى صدره جميع معارف عصره فى الأدب والدين والعلم والفلسفة ، وطالع كتب العرب واليونان والفرس والهنود، وكان قد ألتقى فى «المربد» بحلقات العرب ومن أساتذته : أبو عبيدة الذى وصف بأنه لم يكن فى الأرض خارجى ولا إجماعى أعلم بجميع العلوم منه ، والأصمعى ، وأبو زيد الأنصارى ، والأخفش ، وأبو أسحق النظام — وقد قيل إن النظام هو الرجل الذى يظهر كل ألف سنة .

وطالع ما ترجمه ابن البطريق وحنين بن إسحق وبختشيشوع .

وحدث أبو هفان فقال: لم أر قط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ فإنه لم يقع بيده كتاب قط ، إلا استوفى قراءته ، كائنا ما كان ،

حتى أنه كان يكترى دكاكين الورافين ، ويبيت فيها للنظر .

وروى محمد بن سليمان الجوهرى قال ، كنا نصحب الجاحظ على سائر أحواله من جد وهزل . قال فخرجنا يوما للنزهة فبينا نحن على باب جامع البصره ننظر شيئا أردناه ، إذ عارضت امرأة معها أوراق مقطعة فعرضت ذلك علينا فلم نجد فيها طائلا فتركناها وانصرفنا وتخلف معها الجاحظ ونحن ننتظره فأطال . ثم رأيناه قد وزن لها شيئاً وأخذ الأوراق ، وقال : أنتظرونى . ومضى بها إلى منزله فلما عاد أخذنا نهزأ به وهو يقول: فزت بقطعة من العلم وافره، وضحكنا فقال : أنتم حمقى والله ، إن فيها ما لا يوجد إلا فيها .

وقد عرف أسلوب الجاحظ بالحياة بعيداً عن الجفاف والتعقيد ، حتى إذا تحدث فى العلم ليّنه بنادرة أو فكرة أو سخرية . ، وهو بعد ذلك يسترسل فى الاستطراد والجدل ويعمد إلى الهزل فى مواطن الجد مطبوعا على حب الدعابة وخفة الروح .

* * *

وقد كان الجاحظ أميل إلى التفاؤل ، يرى الدنيا بعين المغتبط لا بعين المغيظ ، يبدو عليه السرور إذا كتب ، وتعتاده الدعابة والتنادر ، مفطور على الوفاء لأصحابه والثبات على الود .

وكان محافظا على الوقت ، ولكنه لم يكن يدخر المال ولا يحسب للغد حسابا ، يعسر أحيانا ولكنه لا يضن على أصدقائه ، وكان على جانب عظيم من عزة النفس .

وبالرغم من أنه ناقد شديد الحجة غير أنه كان ينصف خصمه من نفسه . وصفه الحيانى يقوله : يزيد لفظه على معناه . وقال ابن العميد : الناس عيال

فى ثلاثة على ثلاثة : فى الفقة على أبى حنيفة ، وفى الـكلام على ابن الهزيل وفى الفصاحة والبلاغة على الجاحظ .

وقد كان فى أول أمره يؤلف الـكتاب الـكثير المعانى الحسن النظم فينسبه إلى نفسه فلا يرى الأسماع تصغى إليه، ثم يؤلف ما هو أنقص منه مرتبة وأقل فائدة ثم ينحله عبد الله بن المقفع أو سهل بن هارون ، أو غيرهما المتقدمين ومن قد صارت أسماؤهم فى المصنفين « فيقبلون على نسخها لا لشىء إلا لنسبتها إلى المتقدمين ، ولما يداخل أهل هذا العصر من حسد من هو فى عصرهم ومنافستهم على المناقب التى يختص بها ويعنى بتشييدها » .

والحق أن الجاحظ كان واسع المعارف حقاً ، وأنه قد اتصل بكل النواحى الفـكرية والعقليه فى عصره ، وقد أخذ من كل شىء بطرف .

وقد بلغ من قدرته على معرفة وجوه الـكلام ، أن أحد الأمراء أرسل إليه يطلب منه أن يحتجله فى رأى ، فكتب له الجاحظ بما طلب ثم عاد الأمير يقول أن الخادم قد أخطأ فى تبليغ الرسالة إليه ، وقال إنما أريد أن تكتب فى نقبض هذا الرأى فلم يلبث الجاحظ أن كتب له .

وقد نصر الجاحظ النثر على الشعر ، وجعله أقرب إلى الناس وأعذب فى نفوسهم ، ومهد طريق التقصى فى المعنى والأسباب للشعراء .

وقد وصفت طريقته بأن لا يصل الصدق بالـكذب ، ولا يدخل الباطل فى تضاعيف الحق، ولا يتـكثر بقول الزور ، ولا يلتمس تقوية ضعفه باللفظ الحسن ، ويستر كلامه بالتأليف المونق ، ولا يستعين على إيضاح الحق إلا بالحق وعلى

إيضاح الحجة إلا بالحجة . وقيل كان ينظر فى ألفاظه إلى الدقة والموسيقى ومن ثم شاعت العذوبة فى كلامه .

ويقول فى رسالة الكاتب : ليس الكاتب إلى شىء أجوح منه إلى إفهام معانيه حتى لا يحتاج السامع لما فيه إلى الروية ، ويحتاج من اللفظ إلى مقدار يرتفع به عن ألفاظ السفلة والحشوة ويحطه عن غريب الإعراب ووحشى الكلام « ويقول » ينبغى للكاتب أن يكون رقيق حواشى اللسان . عذب ينابيع البيان . إذا حاور سدد سهم الصواب إلى غرض المعنى لا يكلم العامة بكلام الخاصة ولا الخاصة بكلام العامة وأبرز كتبه ثلاثة : الحيوان والبخلاء « والبيان والتبيين »

* * *

وقد بلغ غاية حبه للكتب أنه مات بوقوع الكتب عليه . ووصفه للكتاب يعطى صورة عاطفته « الكتاب وعاء ملىء علما . وظرف حشى ظرفا ، وإناء شحن مزاحا ، ومن لك بواعظ مثله ، وبناسك فاتك ، وناطق أخرس ، ومن لك بطبيب أعرابى ورومى ، وهندى وفارسى ويونانى ، ونديم مولد ، وحبيب ممنع ومن لك بمؤنس لا ينام إلا بنومك . ولا ينطق إلا بما تهوى . أ كتم للسر من صاحب السر واحفظ للوديعة من أرباب الوديعة .

ومن لك بزائر إن شئت كانت زيارته غبا وورده خمسا ، وأن شئت لزمك لزوم ظلك ، وكان منك كبعضك .

والكتاب هو الجليس الذى لا يطريك ، والصديق الذى لا يقليك ولا يعاملك بالمكر ولا يخدعك بالنفاق . والكتاب هو الذى إذا نظرت فيه أطال إمتاعك ، وشحذ طباعك ، وبسط لسانك وجود بيانك .

وقد قال نقاد الجاحظ إنه أخذ من كل شىء بطرف دون أن يتعمق شيئا .

وقال نقاده أنه يثير الشبهات ولكنه لا ينقضها . ويسأل ولا يجيب .

وقد ابتلى الجاحظ بالحسد فوصفه فى مواضع كثيرة من كتبه ، منها قوله : « الحسد أبقاك الله داء ينهك الجسد ، ويفسد الأود ، علاجه عسر وصاحبه ضجر ، وهو باب غامض ، وأمر متعذر فما ظهر منه فلا يداوى وما بطن فمداريه فى عناء . وهو سبب كل قطيعة . يكمن فى الصدور كمون النار فى الحجر » .

* * *

وقد اتصل الجاحظ بالخلفاء والوزراء ، وقرأ له المأمون فأعجبه فطلب إليه كتابة رسالة عن العباسية ، ثم أسند إليه ديوان الرسائل ولكن الجاحظ مالبث أن خلّف منصبه غير آسف عند ما رأى مؤامرات المنافسة وخصومة الأعوان حتى كان سهل بن هارون يقول « إن ثبت الجاحظ فى هذا الديوان أفل نجم الكتاب » وفضل أبو عثمان أن يعيش حراً .

واتصل بمحمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم وأهداه كتاب الحيوان فمنحه خمسة آلاف دينار ، كما أعطى أحمد بن أبى دواد كتاب « البيان والتبيين » فمنحه خمسة آلاف دينار كما اتصل بالفتح بن خاقان وزير المتوكل واهداه بعض كتبه ، وأهدى كتاب « الزرع والنحل » إلى إبراهيم بن العباس الصولى .

وقد أعجب باسحق بن سليمان . وفضل له أن يكون أميراً وسط كتبه على الصورة التى رآها عليها .

فقد دخل عليه فى إمرته فرأى السماطين والرجال مثولا . كأن على رءوسهم الطير ورأى فرشته وبزته ثم دخل عليه وهو معزول . وإذا هو فى بيت كتبه وحواليه الأسفاط والرقوق والقماطر والدفاتر والمساطر والمحابر .

قال الجاحظ : فما رأيته قط أفخم ولا أنبل ولا أهيب ولا أجزل منه فى ذلك اليوم لأنه جمع مع المهابة المحبة ، ومع الفخامة الحلاوة ، ومع السؤدد الحكمة .

* * *

ومن أبرز أحداث حياة الجاحظ موقفه عندما كاد يهلك قتلا : ذلك أنه لما قبض على الوزير محمد بن عبد الملك الزيات فى خلافة المتوكل ، وكان الجاحظ فى أسبابه وناحيته منحرفا عن أحمد ابن أبى دواد ، هرب الجاحظ فقيل له : لم هربت ؟ قال : خفت أن أكون ثانى اثنين إذ هما فى التنور ؛ يريد ما صنعوا بابن الزيات من إدخاله تنوراً فيه مسامير محماة . وذكروا أنه لما قتل ابن الزيات حمل الجاحظ مقيدا من البصرة ، وفى عنقه سلسلة وعليه قميص سمل ، فلما دخل على ابن أبى دواد عاتبه عتابا شديدا .

قال الجاحظ : خفض عليك ، أيدك الله ، فوالله لأن يكون لك الأمر علىّ خير من أن يكون لى عليك ، ولأن أسىء وتحسن ، أحسن فى الأحدوثة من أن أحسن وتسىء . ولأن تعفو عنى فى حال قدرتك أجمل بك من الانتقام منى »

فعفا عنه ابن أبى دواد .

ولقد ضاق الجاحظ بخدمة الملوك والحكام الظلمة ووصف الذين فى خدمتهم بقوله :

« أولئك لباسهم الذلة وشعارهم الملق وقلوبهم وقد لبسها الرعب وألفها الذل وصحبها ترقب الاحتياج ، فهم من ذلك فى تكدير وتنغيص خوفا من سطوة الرئيس ، وتنكيل الصاحب وتغير الدول »

وقد ألف الجاحظ أكثر من ثلاثمائة كتاب فى الفلسفة والدين والسياسة والاقتصاد والتاريخ والجغرافيا والاجتماع والأدب .

وإذا كان الجاحظ قد رؤى يبيع الخبز والسمك بسيحان ، فانه لم يلبث أن بلغ به الثراء مداه ، فانهالت عليه الهدايا والعطايا من العظماء وأرباب الدولة .

وقد أصيب الجاحظ بالفالج وعاش به ثمانى سنوات لم ينقطع فيها عن العلم والتأليف حتى سقطت عليه مؤلفاته ، وقيل أنه كان من عادته أن يضعها قائمة كالحائط محيطة به ، وهو جالس إليها وكان فى السادسة والتسعين من العمر فسقطت عليه فمات فى البصرة .

وكان ذلك عام ٨٦٨ م .

● أرانى فى الثلاثه من سجونى فلا تسأل عـن الخـبر النبيث
لفقدى ناظرى ولزوم بيتى وكون النفس فى الجسم الخبيث

المعرى

عندما بلغ الثلاثين من عمره غير أسلوب حياته ، توقف عن المضى فى الحياة وبدأ يتحول ثمة عن الخط الطبيعى له . ؛ ولـكن لمـاذا تحول المعرى عن الناس واعتزلهم وأنكر الحياة فى محيطهم .

كان قد عادمن بغداد ، وفى نفسه هذا الاتجاه إلى العزله ، قال: «وجدت أوفق ما أصنعه فى أيام الحياة عزله تجعلنى من الناس كبارح الأروى فى سانح النعام . فأجمعت على ذلك وأستخرت الله فيه ، بعد جلائه على نفر يوثق بخصائهلم . وما ألوت نصيحة نفسى ولا قصرت فى اجتذاب المنفعة إلى غيرى » ،

وقيل كان يحب أمة فلما ماتت زهد فى الدنيا أو أنه أراد مالم يصل إليه .

وكان قد ذهب إلى بغداد للشهرة وسعة العيش فلم يتيسر له ما أراد فعاد يائسا راغبا فى الفرار من الحياة السياسية .

وقد قال عن نفسه : ما أعتزلت إلا بعد ما جددت وهزلت فوجدتنى لا أنفذ من جد ولا هزل » .

وقد طلب إلى أهل المعرة وهو عائد من بغداد ألا ينتظره أحد ، ولا يزوره إذا استقر فى داره . وقد أقام فى داره لا يبرحها خمسين عاما لم يتزوج ولم ينسل وحظر على نفسه أكل الحيوان ، وما يخرج منه ، وعاش على العدس والزيت والتين والدبس وأتخذ من اللباس أخشنه وأقساه ، ومن الفراش أغلظه وأجفاه ، ولم يتخذ فى الشتاء دفئا ، ولا يستطيع الماء الساخن ، وقد عاش حياته لا يتصل بأمير ولا يقف على باب وزير : ومن ذلك قوله « لم أطرق مسامع الرؤساء بالنشيد . ولا مدحت طلبا للثواب . وإنما كان ذلك على معنى الرياضة وأمتحان السوس » .

وقال عن نفسه أنه يعيش فى ثلاثة من سجونه : فقد ناظريه ولزوم بيته وكون النفس فى الجسم الخبيث . وقيل أن زهده ليس زهد الراضين ولكنه زهد المضطرين . زهد من لا يستطيع أن يأخذ حظه من الحياة ، فقد كان يحسد المنعمين ويسمى الدنيا « أم دفر » كراهية لها .

وقد نظر إلى الحياة من خلال منظار أسود . إذ يراها سلسلة من آلام طويلة متصلة الحلقات . وعرف بالتشاؤم والتطير ، إلى جانب السخط والتبرم . وإساء الظن بالمرأة . وقال عن النساء : أنهن حبال غى ، بهن يضيع الشرف التليد ، وكان متقلباً بين الإيمان والشك . يرضى ويسخط . وقد حير الناس فى معتقده فى الدين ، لتناقص آرائه .

ويرى النقاد أنه كان يريد أن يقول أشياء كثيرة لا يستطيع الجهر بها ؛ فقالها فى أسلوب من الرمز ، كما كان حريصا على الرأى الغريب المثير الذى يحدث الدوى فيتحدث الناس عنه .

وقد نعى على الأمراء والعلماء ورجال الدين والحكام الجائرين . ولكنه كان حذراً ، فقد احتاط فى أن يقول كل شيء فى نفسه دون أن يفصح ، حتى

لا يكشف أمره للناس ، ورفض المعرى أكل السمك والطير ولحوم الحيوان .

فلا تأكلن ما أخرج الماء ظالما ولا تبغ قوتا من غريض الذبائح

ومن سخريته قوله :

رب لحد قد صار لحداً مراراً ضاحكا من تزاحم الأضداد

ودفين على بقايا دفين في طويل الأزمان والآباد

تعب كلها الحياة فما أعجب إلا من راغب في ازدياد

وقد وصف المعرى بأنه كان نحيلا ضئيلا ، عرف بدمامة الوجه ، وضآلة البدن وقصر القامة ، وإنطفاء البصر .

طوف بالشام وذهب إلى بغداد ، وتلقى العلم ، وأحب اللغة ، وعدها فنه الأول ، وكان قد أصيب بالعمى بعد ثلاثة أعوام ، وعاش حتى نيف على الثمانين ، يتناول طعامه متخفيا ، متحرجا من علته .

وقد كتب خلال اعتكافه ديوانيه « سقط الزند » و « لزوم مالا يلزم » كما كتب عدداً من الرسائل إلى تلاميذه وأصدقائه . كما ألف « الفصول والغايات » على نسق القرآن يثني فيه على الله ، ويتعبده بهذه الأبتهالات ، ولما مرض وأحضروا له الفروج لمسه بيده وقال : استضعفوك فوصفوك . هلا وصفوا شبل الأسد !

ومما يروى أنه دخل على المرضى أبي القاسم فعثر برجل ، فقال الرجل من الكلب؟ فقال المعرى : الكلب من لا يعرف للكلب سبعين إسما .

ووصف نفسه بأنه وحشي الغريزه ، أنسي الولادة . وقد أستطاع أن يقضى على لذاته الجنسية والغريزية وأن يقتلها . وقد مرت به الأيام متشابهة مضطردة ،

ملوله ، ولكنه رضى بها ، دون مال كثير . ومضت تطوف فى نفسه أحلام اللذات فيصرفها فى أسلوب من القشر والتسامى .

وكان يخاف أن يظلمه الناس بعد موته حين يرون أدبه الذى كتبه ، برموزه وإيماءاته فقال :

لا تظلموا الموتى وإن طال المدى إنى أخاف عليكم أن تلتقوا

. . .

ذلك هو أبو العلاء المعرى ولد عام ٣٦٣ هـ ببلدة معرة النعمان فى بيت علم وفضل ، توفى والده وهو فى العاشرة ، بعد أن فقد بصره على أثر أصابته بالجدرى وهو فى الثالثة ، فجد فى طلب العلم متحديا وحصّل الكثير ، ونبغ فى الشعر والفلسفة . وكان قد رحل إلى بغداد فأقام بها حينا ، ثم رحل إلى اللاذقية وطرابلس ، .. فلما عاد لزم داره فسعت إليه الوفود من طلاب العلم فى كل مكان .

ويقولون أنه لو أطاع نفسه لبقى فى بغداد طوال عمره ، ولكنه لم يجد الرزق ، وشاقه أن يترك أمة التى يبرها والتى كانت رؤوما به ، بعد فقد أبيه ، حين تقدمت بها السن ، غير أنه ما كاد يعود حتى وجدها قد خلفت الدنيا ، دون أن يشهدها ومن ثم زاد حزنه وزهد فى الحياة .

ولعل آية قوة شخصيته أنه أستطاع أن يحتمل هذه الحياة بعد عودته ، مجدا فى العلم ، محبوسا فى داره ، كافا نفسه عن الحيوان والإنسان جميعا ، ينفث مشاعره فى شعره ، باحثا عن كنه الحياة قانعا بأقل القليل مما يقيم الأود .

ولعل تفكير المعرى فى الحياة قد طال به ، وراوده الشك فى كثير مما آمن به الناس ، ولعل التفكير فى المصير والعجز عن معرفته ، هو الذى حيره ، ولعل الغد المغيّب الذى لا يعرف كهنه هو الذى أفسد عليه يومه ، فحمل على التناسل ودعا إلى النباتية ، ورغب عن الضرب فى الأرض ، بل لقد تحدث عن حرق جثث الموت ، بدلا من دفنها فى التراب .

ولقد كان المعرى أعجوبة الأعاجيب فى اللغة وحفظ الشواهد ، فقد حذق النحو والصرف ، إذ تلقى فى دير الفاروسى على راهب هناك بعض علوم الأوابن .

وفى زيارته لبغداد عام ١٠٠٨ م أجتمع بالشريف الرضى والشريف المرتضى وأقام هناك عاما وسبعة أشهر يتفقد خزائن الكتب . ، وكان يحصل فى عامه على ثلاثين دينارا قدر منها نصفها لمن يخدمه .

وكان فراشه من لباد فى الشتاء وحصيرة من البردى فى الصيف ، وكان أبلغ أكله العدس وحلاوته التين . وقد بلغ به الأمر أن لا يجد ما يعطيه أجرا لمن يتولى نسخ ما يملية من تأليفه .

وفيما كتبه عن نفسة قوله « لزمت مسكنى منذ سنة أربعمائة هـ واجتهدت على أن أتوفر على تسبيح الله وتحميده إلا أن اضطر إلى غير ذلك ، فأمليت أشياء وتولى نسخها الشيخ أبو الحسن بن عبد الله بن أبى هاشم ، أحسن الله معونته ، فألزمنى بذلك حقوقا جمة وأيادى بيضاء لأنه أفنى فىّ زمنه ، ولم يأخـــذ على ما صنع ثمنه » .

وقد كان المعرى فى عزلته قويا جريئا فقد أنكر استبداد الملوك فى عصره وطغيان الأمراء وظلمهم للرعية .

وقيل أنه لما غضب أسد الدولة صالح بن مرداس صاحب حلب على سبعين رجلا أعتقلهم من أعيانها فزع أهلها إليه فمضى لشفاعتهم وخرج من أحد أبواب المدينه وفى يده قائده .

فلما أبصر صالح رأى شيخا قصيراً يقوده رجل . فقال هذا هو أبو العلاء . جيئونى به . فلما جاء تشفع لهم فرضى له وعفا عنهم.

وقد توفى عام ١٠٥٨ م .

• قال الأصمعى لابن المقفع : من أدبك ؟ قال : نفسى ، إذارأيت من غيرى حسنا أتيته ، وإذا رأيت قبيحا أبيته »

ابن المقفع

قالوا إن الخليل بن أحمد صاحب العروض اجتمع بابن المقفع ، فلما افترقا قيل للخليل : كيف رأيته : فقال علمه أكبر من عقله . وقيل لابن المقفع : كيف رأيت الخليل فقال : عقله أكبر من علمه .

ولعل معنى هذا فى صورة الوقائع أن أورد المقفع نفسه مورد الموت حين وقف فى وجه المنصور بكتابة الأمان لعبد الله بن على فقد أسرف فى الاحتياط حتى لا يجد المنصور منفذا للإخلال بعهده ومما قاله فيه : وإن أنا نلت من عبد الله بن على أو أحد ممن أقدمه معه بصغير من المكروه أو كبير ، أو أوصلت إلى أحد منهم ضررا له سراً أو علانية على الوجوه والأسباب كلها ، تصريحا أو كناية أو بحيلة من الحيل ، فانا نفى من محمد بن على بن عبد الله ومولود لغير رشدة ، وقد حل لجميع أمة محمد خلعى وحربى والبراءة منى ، ولا بيعة لى فى رقاب المسلمين ولا عهد ولا ذمة ، وقد وجب عليهم الخروج من طاعتى وأعانة من ناوانى من

جميع الخلق ولا موالاة بينى وبين أحد من المسلمين . وختمه بقوله : ومتى غدر أمير المؤمنين بعمه عبد الله . فنساؤه طوالق ، ودوابه حبس ، وعبيده أحرار ، والمسلمون فى حل من بيعته » مما أغضب المنصور وطلب القضاء عليه فتسلمه سفيان أحد رجاله فأمر بتنور فأسجر، ثم إمر بابن المقفع فقطع منه عضو ثم ألقى فى للتنور ، وابن المقفع ينظر حتى أتى على جميع جسده ثم أطبق عليه التنور ، ولم ينس ابن المقفع قيمته فى نفسه فقال لسفيان لما أراد تقطيعه : والله إنك لتقتلنى فتقتل بقتلى ألف نفس ولو قتل مائة مثلك ما وفوا بواحد .

• • •

ذلك هو ابن المقفع أحد نوابغ الفكر العربى ، ممن أتيح له حظ ضخم فى الجمع بين التاريخ والفلسفة والحكمة : تاريخ الفرس ، وفلسفة اليونان وحكمة الهند ، وهو الذى جمع بين اللغتين الفارسية والعربية ، عاش خمسة وعشرين عاما فى عهد الأمويين فى مرحلة التحصيل والتأمل ، وعشر سنوات فى عهد العباسيين فى مرحلة الإنتاج .

وكان ابن المقفع واسمه الفارسى « روزبة داذوية » قد ولد عام ١٠٦ ﻫ فى قرية حور بفارس على دين زرادشت ومذهب المجوس، ولغة فارس ، ثم لم يلبث أن ارتاد « البصرة » حيث كانت المدينة تموج بأهل العلم وتذخر بالأدباء . وقصد المربد ثم كتب ليزيد بن عمر بن أبى هبيره ثم لأخيه وشهد انهيار الدولة الأموية ، وراقب الأحداث عن كثب وسجل ملاحظته عن غروب الدول وشروقها وأدوائها .

فلما جاءت الدولة العباسية ، كان ذلك دافعا له ليعلن إسلامه .

قيل إنه كان يمشى ذات يوم فى طريق ضيق ، إذ سمع صبيا ، يقرأ القرآن

بصوت مرتفع لقوله تعالى « ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً ، وخلقنا كم أزواجا ، وجعلنا نومكم سباتا » قال والله ليس هذا بكلام بشر .

ثم ذهب إلى عيسى بن على وقال له : لقد دخل الإسلام فى قلبى وأريد أن أسلم على يديك . فقال له عيسى : ليكن ذلك بمحضر من القواد ووجوه الناس ، فإذا كان الغد فاحضر ، ثم حضر طعام لعيسى عشية هذا اليوم فجلس ابن المقفع يأكل ويزمزم على عادة المجوس ، فقال له عيسى : أتزمزم وأنت على عزم الإسلام فقال : كرهت أن أبيت على غير دين . فلما أصبح أسلم على يده ، وصار كاتبا له واختص به .

• • •

ولقد عرف ابن المقفع بالشخصية الواضحة الملامح ، فقد كان جميل الطلعة ، حسن المعشر ، حاد النظر ، سريع البديهة ، ووصفه الجاحظ فقال أنه كان جواداً فارسا جميلا . وقيل كان خفيف الروح ، مرحا حلو الدعابة . وقد جمع إلى حلاوة الروح دقة الذوق ، هذا إلى حدة الذهن ونباهة الشأن .

وقيل كان سريا سخيا يطعم الطعام ويتسع على كل من احتاج إليه وقيل إنه أفاد مالا لما كان يكتب لابن هبيرة على كرمان : فأداه ما جبل عليه من حب الخير أن يجرى على جماعة من وجوه أهل البصرة والكوفة ما بين خمسمائة درهم إلى ألفين من كل شهر ، ولم يقف جوده عند هذا الحد من التوسعة على من يعرف من البصرة والكوفة ، وأثرت عنه قصص من السخاء . .

وقد صور هذا المعنى فى رسائله فقال : أبذل لصديقك دمك ومالك ولمعرفتك رفدك ومحضرك ، وللعامة بشرك وتحننك ، ولعدوك عدلك واضنن بدينك وعرضك عن كل أحد »

وإذا كان ابن المقفع قد كتب هذا على أنه كلام يقال فإنه طبق ذلك عمليا ، فقدم لصديقه دمه .. ذلك أنه أخفى عبدَ الحميد بن يحيى «الكاتب» فعثر عليه عنده فلما فاجأهما الطلب وهما فى بيته ، قال الذين دخلوا عليهما : أيكما عبد الحميد فقال كل واحد منهما : « أنا » . . خوفا على صاحبه وقد خيل إليه أن الذين جاءوا يقبضون على صديقه إنما ينشدونه هو. فقال لهم : أصبروا ، فإن لكل منا علامات تستطيعون أن تعرفوه بها . . وعرف ابن المقفع إنه من أرباب التفاؤل لا التشاؤم . وادع النفس . ينظر إلى الأشياء من وجهها الحسن ، ولا يفتأ يجملها بحسن ظنه ويغالط نفسه فى حقيقة السعادة .

• • •

ومكان ابن المقفع فى عالم الفكر واضح وضوحا يصوره محمد بن سلام فى قوله :

لم يكن للعرب بعد الصحابة أذكى من الخليل بن أحمد ولا أجمع . ولا كان من العجم أذكى من ابن المقفع ولا أجمع . وقال صاحب الفهرست : إنه واحد من البلغاء العشرة وهو أول من ترجم من الفارسية إلى العربية فنقل كتب أرسطو الثلاثة ، كما ترجم كتاب « كليلة ودمنة » وكتاب « التاج » فى سيرة أنو شروان .

وقد ألف كتبه الثلاثة : الأدب الكبير والأدب الصغير واليتيمة .

وسجل فى كليلة ودمنة : إنه كتب بعض فصوله ونقل الباقى عن غيره .

ومن تلاميذه الذين ساروا على نهجه : الجاحظ وابن قتيبة وابن حزم والنويرى وقيل كان ابن المقفع كثيرا ما يقف إذا كتب فقيل له فى ذلك فقال : إن الكلام يزدحم فى صدرى فأقف لتخيره . وقيل إنه كان فيما يكتب ينزوى

ولا يتسرع ولا يبتده وقد يرتجل وينشىء أفكاره وأفكار غيره إنشاءاً وعرف بأنه إذا أراد الشعر صنعه ، بيد أنه لم يشغل به نفسه لانصرافه إلى النثر ، وقيل لم يدان ابن المقنع فى الكتابة المرسلة مدان ، فهو فيها المفرد العلم .

وقد أثرت الثقافة الفارسية فيما كتب ذلك حين أراد أن ينقل للعرب عن فارس والهند والروم فى أدبها من ذخائر الحكمة والعلم ما نقل .

وقد هاجم الخلفاء فى رسالة الصحابة — وكان يقصد المنصور — كما حمل كتاب « كليلة ودمنة » حملة عنيفة على الحكام الظالمين ، مما كان له أبعد الأثر فى مقتله ، فضلا عما أوغر من صدور الحاسدين بنبوغه وعبقريته .

• • •

وتعطى كتاباته الحكمية صورة نفسه وخطوط شخصيته وملامح شمائله :

« لا عقل لمن أعفله عن آخرته ما يجده من لذة دنياه ، وليس من العقل أن يحرمه حظه من الدنيا بصره بزوالها . وعلى العاقل ما لم يكن مغلوبا على نفسه ، أن لا يشغله شغل عن أربع ساعات : ساعة يرفع بها حاجته إلى ربه وساعة يحاسب فيها نفسه وساعة يفضى فيها إلى إخوانه وثقاته ، وساعة يخلى فيها بين نفسه وبين لذتها مما يحل ويجمل »

وكان ينفر من الحسد نفوره من الحرص « الحرص والحسد بكرا الذنوب وأصل المهالك . أما الحسد فأهلك إبليس . وأما الحرص فأخرج آدم من الجنة .

• • •

ومن حكمه قوله :

إن كنت نوع العلم تريد ، فأعرف الأصول والفصول فإن كثيرا من الناس

يطلبون الفضول مع إضاعة الأصول ، وأصل الأمر فى صلاح الجسد ألا تحمل عليه من المآكل والمشارب إلا خفافا وأصل الأمر فى البأس والشجاعة ألا تحدث نفسك بالإدبار وأصحابك مقبلون على عدوهم ثم أن قدرت على أن تكون أول حامل وآخر منصرف من غير تضييع للحذر فهو أفضل .

وأصل الأمر فى الجود ألا تضن بالحقوق على أهلها ثم إن قدرت أن تزيد ذا الحق على حقه ، وتطول على من لا حق له فافعل فهو أفضل .

وأصل الأمر فى الدين أن نعتقد الإيمان على الصواب وتجتنب الكبائر ، وتؤدى الفريضة .

وأصل الأمر فى الكلام أن تسلم من السقط بالتحفظ ثم إن قدرت على بارع الصواب فهو أفضل .

وأصل الأمر فى المعيشة الا تنى عن طلب الحلال وأن تحسن التقدير لما تفيد وما تنفق ولا يغرنك من ذلك سعة تكون فيها .

ويقول ابن المقفع : إنى مخبرك عن صاحب كان أعظم الناس فى عينى ، وكان رأس ما أعظمه عندى هو صغر الدنيا فى عينيه .

• • •

تلك هى نفسية ابن المقفع فى صورة رسمها بقلمه • وهذه هى بلاغة ابن المقفع • تدل على شخصية الرجل المثالى المحب للقيم ، وتصور قدرة عقل مرتب وذهن صاف فى تنسيق المعانى وتدبيجها •

● لقد عكفت بضعه وستين عاما على دراسة شتى الفنون فاين ما افادتنى من مجدا وذهب؟ لاشىء سوى الحسرة على الماضى .

الفردوسى

عند ما يذكر « الفردوسى » تخطر على البال صور دانتى وملتن وكورياس وهوميروس وفرجيل أصحاب الملاحم القصصية الطويله التى خلدت تاريخ ايطاليا واليونان ؛ هؤلاء الذين عاشوا على مدى التاريخ تحمل لهم الأمم المجد والذكر جزاء ما قدموا للفكر والأدب الإنسانى من تراث خالد .

ولكن الفردوسى يمتاز على هؤلاء جميعا بأنه قضى حياته مضطهدا طريدا ، مظلوما ، لم ينصف قومه قدره ، ولم يجزوه جزاء عمله الضخم الذى خلد وطنهم وأدبهم ، على عكس مالقى أولئك من أوطانهم من تقدير أدبى مدى حياتهم .

بل ان الفردوسى ، عندما تذكره قومه ، وحملت إليه الجائزة التى ظل يترقبها طوال حياته ، آثر أن يترك دنياه حتى لايلقاها ولا يحملها ، وليظل اسمه طوال الزمن رمزاً على الغبن ، حتى «ابنته» التى أريد أن تعطى لها الجائزة رفضت أن تقبلها وردت رسول الامبراطور بها .

ظهر الفردوسى فى عهد محمود الغزنوى ، وقد كرس حياته لنظم الشاهنامه الفارسية سارداً تاريخ الفرس بما يحويه من مآثر ، خلال سبعة وثلاثين سنة كاملة ، فلما انتهى منها باذلا فيها من الجهد الضخم ما لا قبل لأحد باحتماله ، حملها وسار من طوس حيث كان يقيم إلى غزنه حيث قدمها للسلطان ، فلما رآها السلطان سأل وزيره « احمد حسن الميمندى » فأشار بأن يجزل له العطاء ، غير أن الحاشية طعنت فى الفردوسى وقالوا انه لا يستحق أكثر من خمسين ألف درهم .

ولم يكن للفردوسى غير بنت واحدة ، وكان يطمع فى أن يعطى صلة السلطان لابنته ، فلم يلبث أن أرسل إليه ٢٠ ألف درهم فضاق بذلك وغضب على السلطان . ومما يذكر أن السلطان كان قد وعد بأن يعطى عن كل بيت من الشعر « تومانا » من الذهب . قالوا فذهب إلى الحمام وبعد الاستحمام شرب كوبا من الفقاع ، ثم قسم صلة السلطان بين الحمامى والفقاعى وهرب من « غزنه » بليل ، واستخفى فى هراه ستة أشهر . ثم سار إلى طبرستان ليقدم الشاهنامه إلى أميرها .

قالوا : فلما قسم الفردوسى عطاء السلطان بين الحمامى والفقاعى ، هاج غضبه ، وهم أن يبطش بالشاعر الذى ظل مختبئا مدة نظم فيها مائة بيت من الشعر هجا فيها السلطان هجاءاً لاذعا .

ولما نزل عند صاحب طبرستان اشترى منه هجاء السلطان فمحاه من الشاهنامه المليئة بأساطير الفرس القديمة .

ولم يلبث الفردوسى أن عاد إلى طوس فبلغها منهكا وقد جاوز الثمانين

* * *

وقد حدث فى إحدى رحلات السلطان أن استشهد الوزير « الميمندى » ببيت

من الشعر عن الشجاعة : فلما سأله السلطان عن صاحبه قال : أنه من الشاهنامه ، قال السلطان : أنه ليحزنني أن يحرم عطائي هذا الرجل الحر ، وطلب إلى وزيره أن يذكره بذلك عند عودته إلى « غزنه » فلما عاد أمر باعطائه ستين ألفا من الدنانير ، وطلب أن تحمل إليه على الابل ويعتذر له ، ولكن القدر سخر من السلطان فما أن وصلت الابل إلى ساحة دار الفردوسي في طوس تحمل الهدية حتى كان قد أسلم الروح عام ٤١١ هـ ، وقيل أنه بينما كانت الابل داخله من بعض أبواب بالمدينة كانت جنازة الشاعر خارجة من باب آخر ، فلما أراد رسول السلطان أن يدفعها إلى ابنته ، اعتذرت عن ذلك ورفضت أن تأخذها .

* * *

وقد عرف الفردوسي بأنه وصاف مبدع ، وأن الصور التي رسمها للمعارك الحربية أو مجالس الأنس كانت غاية في الرواء ، وأن الشاعر قد أخرج الموضوع ثم أفرغ عليه حلة من بلاغته وقوة تصويره ، وقد ظلت لغتة تعين كل باحث على دراسة اللغة الفارسية ، وتعين الاجتماعي على تصور ملامح المجتمع الفارسي ، كما تعين مؤرخ الأديان ومؤرخ السياسة والفنان ...

وقد استهدفت الشاهنامه تهذيب النفس وتكميلها ، وتقوم فلسفتها على أربعة أمور عظيمة : هي الإيمان والواجب وطهارة القلب والزهد ، وكان الفردوسي قد بدأ عمل الشاهنامه وسنه واحد وثلاثون عاما وأنه أخرجها في ستين ألف بيت .

وفد ولد « أبو القاسم منصور الفردوسى فى طوس (خراسان) ٩٣٩ م وتوفى عام ١٠٢٠ م وقد تضمنت الشاهنامه تاريخ الأمة الفارسية منذ بدء تـكوينها حتى استولى عليها العرب عام ٦٥١ .

ولقد كتب الفردوسى فى مذكراته يقول « لقد عكفت بضعة وستين عاما على دراسة شتى الفنون فأين ما أفادتنى من مجد أو ذهب ، لاشىء ! سوى الحسرة على الماضى ، لقد غاضت كل أمارات شبابى الغابر ...

وفد ورث الفردوسى عن أبيه ضياعا ، كانت تغل عليه فى صـدر حياته مالا يكفيه . مما أعانه على حياة طيبه خصبة خلال فترة عمله الضخم ، وكان تعلم الفهلوية والعربية . وشغف فى صباه بقرض الشعر الفارسى ومطالعة القصص الفارسى القديم .

وقد استجاب « الفردوسى » لأمل كان قومه يتطلمون إليه ، هو أذكاء الروح القومى وأحياء أمجاد أمتهم ، وقد كان الفردوسى محبا لقومه معتدا بتاريخهم ، مؤمنا بمذهبهم الشيعى ، وكان إلى ذلك معتزلى الرأى .

ووجد الفردوسى أمامه حصيلة ضخمة كأنما قد أعدت له ، ذلك أن قومه كانوا قد عمدوا إلى جمع أخبار الفرس محاولين نظمها فى تاريخ شعبى لفارس ، كما استطاع أن يطالع الـكتب المحفوظة فى قلاع فارس وفى خزائن الموابذة والدهاقين .

وكان قد سبقه شاعر اسمه « الدقيقى » إلى نظم ألف بيت من الشعر جعلهـا نواه شاهنامه غير أنه لم يتمكن من الاستمرار ومات عام ٣٦٦ هـ .

وقد تجمعت هذه العوامل كلها ففتحت الباب واسعا أمام الفردوسى لإكمال هذا العمل الضخم فقرأ ما كتبه الدقيقى وواصل بعده وظل عاكفا على العمل حتى انتهى منها عام ٣٨٩ هـ . ثم مضى يراجعها مكملا مابها من نقص أو مستدركا مافاته

فى نسخته الأولى . وقد كلفته هذه المراجعة أحدى عشر سنة وانتهى منها عام ٤٠٠هـ وبلغت أبياتها ستون ألفا .

ولا شك أن ذلك يعطى الفردوسى صفة الرجل الفذ العبقرى الذى ألف وجمع الحكايات والقصص الشائعة فى قومه وأساطيرهم التى كانوا يعتقدونها ولاءم بينها على هذا النحو الفنى العجيب .

وقد صوره الأستاذ العبادى بأنه وصاف مبدع إذا تصدى لوصف موقعة حربية أراك ميدان القتال وجلا على عينيك ما يجرى فيه من كر وفر وهجوم وأراك السيوف تلمع . والرماح تشرع واسمعك صهيل الخيول . وأنين الجرحى ، وصور لك ظفر الغالب وهزيمة المغلوب » .

وتعطى الشاهنامه صورة لأدب القوة : قوامها صدق العزيمة وبعد الهمة وعظم الغاية كما خلت من الألفاظ الخارجة والمعانى النابية وقد حرص فيها على التوجيه والتعليم والايمان عنده إيمان الأبطال . وأشخاص الشاهنامه تستند بطولتهم إلى شعورهم القوى بالواجب . كما أن شخصية المرأة فى الشاهنامه تقوم على حظ كبير من الأنوثة والوفاء للزوج .

وقد قيل فى ازورار السلطان التركى « محمود الغزنوى » عن الفردوسى ، أنه وهو الفاتح الذى أعلى كلمة الاسلام فى الهند قد ضاق باشادة الشاعر بأهله الفرس أيام المجوسية و كره عصبية الشاعر الفارسية ، وتشيعه وجهره بالآراء المشبعة بالاعتزال .

● وصف ابن سينا الدنيا فقال « دار أليمها موجع ، ولذيذها مستبشع ، وصحتها قسر الاضداد على وزن واعداد ، وسلامتها استمرار فاقه إلى استمرار مذاقه .

ابن سينا

كانت حياته عريضة حقا ، كما دعا ربه ، وإن لم تكن طويلة إذ لم تزد على سبعة وخمسين عاما ، ومع ذلك فقد كانت خصبة حقا ، مازالت حتى اليوم تأخذ بألباب الباحثين نتيجة للأعمال الضخمة التى حققها وفى مقدمتها رسائله التى بلغت مائتى مؤلف .

وهى حياة عميقة قوية حينما تتصل بالفكر والفلسفة والعلم ، ولكنها حياة ضيقة قلقة حينما تتصل بالسياسة وأهوائها فقد كادت تودى بحياته ، وأدت به إلى السجن والنفى والاختفاء .

ويقف ابن سينا بين الغزالى وابن رشد ، ويتوسط بين الحكمة والتصوف وهو من أكثر فلاسفة الاسلام نظما للشعر والأراجيز ، ويقول عن نفسه أنه كلما صادفه مشكل من مشاكل الفلسفة اتجه إلى « الجامع » يصلى مبتهلا إلى « مبدع الكل » حتى « يفتح له المنغلق وييسر المتعسر » وقد وصف بأنه على جانب كبير

من الذكاء والمثابرة على العمل وتوقد الذهن ، ميالا إلى حل المشكلات العويصة ، وكان قوى البنية والمزاج مسرفا فى الشراب وحب اللهو واللذات البدنية . وقال عنه تلميذه الجوزجانى بأنه كان قوىّ القوى كلها .

وكان ابن سينا يستيقظ مبكرا فيصنف ورقتين فى كتاب الشفاء أو غيره وعند الفجر يجتمع بتلاميذه ، الذين كانوا يتسابقون إلى القراءة عليه حتى يسفر الصباح فيصلون وراءه .

وقد كان ابن سينا قوى العارضة حتى أنه أجاب عن شبهه عرضت عليه فى خمسين ورقة كتبها فى نصف ليلة ، كما وصف بأنه محب للظهور ، حريص على مصادر أفكاره ، لا يحب أن يعرف أحد ممن استقى علومه .

ويقول ابن سينا عن نفسه « كملت العشر من العمر ، وقد أتيت على القرآن وعلى كثير من الأدب حتى ما كان يقضى منى العجب » فلما بلغ العشرين كان حجة فى الطب والفلك والرياضة والفلسفة : وقد لخص فى هذا السن كتابا معقدا لأرسطو عن الطبيعيات مستعينا بشرح سابق لأستاذه الفارابى .

وقد واصل فى شبابه المبكر الدرس والتحصيل فقرأ الطبيعى والإلهى والطب والفلسفة والمتافزيقا وطالع كتاب الفارابى عن مابعد الطبيعة .

ولكنه لم يلبث أن تقلد عملا من أعمال السلطان بعد موت والده ، فانتقل من بخارى إلى جرجان . ثم إلى داهستان ، وعاد مرة أخرى إلى جرجان . ثم لم يلبث أن قصد إلى الرى وهناك حدث ما استوجب خروجه إلى قزوين ، ومنها إلى همذان ، وهو فى خلال ذلك كله يقاسى من موجات السياسة العاصفة واضطرابها ، وفى همذان تقلد الوزارة لشمس الدولة ، غير أن العسكر ثاروا عليه وأغاروا على داره ونهبوها وقبضوا عليه وطلبوا إلى شمس الدولة قتله ،

فامتنع وأخلى سبيله ، وظل متواريا حتى اتهم بأنه كاتب أمير اصفهان علاء الدولة سراً فقبضوا عليه وسيروه إلى قلعة مزدجان فسجن أربعة أشهر ... ثم أخرج وأعيد إلى همذان ، ثم خرج متنكراً إلى اصفهان وهناك اتصل بعلاء الدولة فأكرمه ، وسار معه إلى سابور .

وهكذا لفت السياسه الرجل الذى وصف بأنه أرسطو الاسلام والذى أطلق عليه « الشيخ الرئيس » فى تيارها الضخم ، ودوامتها القاسية فشغلته حينا عن فكره وميدانه الأصيل .

* * *

ولكن ابن سينا رغم هذا كله أنتج إنتاجا ضخما وخلف آثاراً قوية حية فأتم كتاب « الشفاء » فى ١٨ مجلدا والذى يعد دائرة معارف للابحاث النفسية فى المنطق والطبيعيات والفلسفة وقد ترجم كتاب الشفاء إلى اللاتينية وكان للجزء المتعلق بالفن أكبر الأثر فى رجال الفلسفة المسيحية وترجم فى القرن الثانى عشر الميلادى وكتابه « القانون » الذى يعد من أكبر مؤلفاته الطبية وأنفسها . وقد جمع فيه ماعرف عن الطب عند الأمم السابقة إلى ما استحدثه من نظريات وآراء ، وما اكتشفه من أمراض سارية وأمراض منتشرة ، وقيل أن الطب كان ناقصا فكمله ابن سينا .

وقد استقى ابن سينا من فلسفة أرسطو ، وأضاف إليها وأخرجها فى نطاق واسع ونظام أتم .

ولابن سينا شعر جيد من أبرزه قصيدته العينيه المشهورة التى أودعها فلسفته فى النفس وجرى فيها مجرى أفلاطون معتقدا أن النفس خلقت أولا فلما أتمت

سجنها الله فى البدن ، ونسيت معارفها ومداركها فاذا اكتسبت شيئا منها بعد ذلك فانما تتذكر أمراً قديما .

هبطت إليـــك من المحل الارفع ورقاء ذات تعزز وتمنـــع
محجوبة عن كل مقــله عارف وهى التى ســفرت ولم تتبرقع

ويعد اثبات وجود النفس ومغايرتها للبدن من أظهر أعماله التى عزز دفاعه عنها بمختلف الفروض فهو الذى يقول « مادامت النفس تفــكر فهى موجودة » وإن كان ابن سينا قد أخذ ذلك عن أفلوطين .

ومن فلسفة ابن سينا « أن السعادة الــكاملة فى هذه الحياة الدنيا تقوم بالتجرد التام عن الحسيات ، والابتعاد عن الملذات البدنية والتبحر فى الوجود الــكامل » .

ومن حكمته قوله « إذا كان الخلق قد بدأ بأكمل الأجناس فانه ختم بأكمل الأنواع ، بدىء بأشرف الجواهر وهو العقل الأول ، وختم بأشرف الموجودات الأرضية وهو العاقل فالانسان خاتمة الخلق وغايته » .

وقد وصف الانسان بأنه « مخلوق عجيب ومزيج غريب ، فيه ما يقرّبه من النبات ، وما يربطه بالحيوان ، وما يصعد به إلى عالم الملائــكة ، فبغرائزه واستعداده الطبيعى يأكل ويشرب ويصح بدنه ، وبقواه الحيوانية يتحرك ويتخيل ، وبقواه العقلية يتذكر ويتضرع ، وعن طريق الإدراك والتأمل يستطيع أن يخلص من المادة وادران البدن ، ويسمو إلى عالم القدس والسعادة ، وينعم باللذة العليا ، ويصبح أحد العارفين » .

وهو يصور المراة فيقول « خير النساء العاقلة الدينة ، الحيية ، الفطنة ، الودود ، القصيرة اللسان ، المطاوعة العنان ، الناصحة الجيب ، الرزان فى المجلس ، الوقور

فى غيبتها ، الخفيفة فى خدمتها لزوجها ، تحسن تدبيرها ، وتكثر قليلها بتقديرها ، وتخفف أحزان الزوج بتجميل أخلاقها ، وتسلى همومه بتلطيف مداراتها » .

ولا شك أن هذه النماذج وغيرها تعطى صورة لفكر منظم قوى عميق ، متصل بالحياة الانسانية ، خبير بها ، فيه عصارة التجربة وخلاصة البحث ، وحيوية الذهن .

ولم يخل ابن سينا من الفخر بنفسه فى شعره ومن ذلك قوله :

تدين لى الدنيا بل السبعة العلا بل الأفق الأعلى إذا جاش خاطرى

أما البلاغة فاسألنى الخبير بها أنا اللسان قديما والزمان فم

وقد كان ابن سينا يفرق بين النبوه والحكمة[١] .

فقد سأله الجوزجانى يوما : لم لا تدعو إلى رسالة دينية كرسالة الأنبياء وأنت بهذا العلم الذى لا يدانيك فيه أحد من جلة العلماء فلم يجبه لساعته وتربص به أياما وليالى حتى كانت ليلة من الزمهرير القارس حيث أيقظه من رقاده وأمره بالنزول إلى فناء الدار لاخراج دلو من ماء البئر التى فى ذلك الفناء .

وتململ التلميذ الأمين ، وكرر الاعتذار والتسويف إلى الصباح حتى تكرر عليه طلب الأستاذ ، وامتد بهما الحوار إلى أن سمعا آذان الفجر من المئذنة القريبة ، فقال الأستاذ للتلميذ ماذا تسمع ؟ .

قال : دعاء المؤذن للصلاة .

قال الشيخ : انى معك فى الدار لم أستطع أن أخرجك مرة واحدة من تحت

(١) من مقال للعقاد : ابن سينا حلال المشكلات . مجلة أفغانستان : مايو ١٩٥٧ .

غطائك إلى فناء الدار ، وهذا رجل من مئات الرجال فى أنحاء الأرض يخرج من داره فى الزمهرير كل ليلة ليردد بعد اربعمائة سنة دعوة نبى لم تبصره عيناه ، وهذا هو الفرق بين هداية النبى وهداية الحكيم .

* * *

وقد ولد حسين بن عبد الله بن الحسين الملقب بابن سينا عام ٩٨٠ فى بخارى بأسيا الوسطى (لتركستان) ومات ١٠٧٣ م وقد عمل فى ميدان الطب والفلسفة كما استنبط آلة تشبه آلة (الورنية) تستعمل لقياس طول أصغر من أصغر أقسام المسطرة المقسمة ، أى لقياس الأطوال بدقة متناهية .

ومن قوله أن سرعة النور محدودة ، وقد عمل تجارب فى الوزن النوعى ، ووجد الوزن النوعى لمعادن كثيرة كما كانت له دراسات عن الحركة والايصال والقوة والفراغ واللانهاية والحرارة والنور .

وسيظل ابن سينا بالرغم مما قبل من أن حياته الخاصة تخالف آراءه : قوة فكرية خالدة على مر الأيام .

• إن الإنسان ليس حرا على الإطلاق ولامطلقا بغير قيد . وإن الحرية تكمل فى نفس الإنسان ولكنها تبقى محدوده بقضاء الأحوال الخارجة .

ابن رشد

قال أرنست رينان « ألقى أرسطو على كتاب الكون نظرة صائبة ففسره وشرح غامضة . ثم جاء ابن رشد فألقى على فلسفة أرسطو نظرة خارقة ففسرها وشرح غامضها »

وقال لويجى رنيالدى « من فضل العرب علينا أنهم هم الذين عرفونا بكثير من فلاسفة اليونان وكانت لهم الأيدى البيضاء على النهضة الفلسفية عند المسيحيين .

« وكان الفيلسوف ابن رشد أكبر مترجم وشارح لنظريات أرسطاليس ولذلك كان له مقام جليل عند المسلمين والمسيحيين على السواء . وقد قرأ الفيلسوف النصرانى توماس نظريات أرسطاليس شرح العلامة ابن رشد . ولا تنس إن ابن رشد هذا هو مبتدع مذهب « الفكر الحر » وهو الذى كان يتعشق الفلسفة ويهيم بالعلم ويدين بهما . وكان يعلمهما لتلاميذه بشغف وولع شديدين .

وهو الذى قال عند موته كلمته المأثورة « تموت روحى بموت الفلسفة »

وقال جون روبرتسون « أن ابن رشد أشهر مفكر مسلم لأنه كان أعظم المفكرين المسلمين أثراً وأبعدهم نفوذا فى الفكر الأوربى فكانت طريقته فى شرح أرسطو هى المثلى فى القرون الوسطى »

وقد بلغ من تقدير الغربيين له أن صوره ميخائيل أنجلو فى جحيمه الذى رسمه فى سقف معبد (سيكتين) بالفاتيكان وذكره دانتى فى قصيدته فى النشيدالثالث .

* * *

ذلك ابن رشد الذى أحرقت كتبه وشرد وسجن لحرية رأيه ، وعرف قدره مفكرى الغرب وفلاسفته ، أخذ الطب من جالينوس ، والفلسفة من أرسطو ، والفلك من المجسطى والفقه من أئمة المالكية .

كان محبا لفنون الأدب ، قرأ شعر العرب فى الجاهلية والإسلام ، وحفظ كثيرا من قصائد عنترة وامرىء القيس والأعشى وأبى تمام والنابغة والمتنبى . وقد كان لهذا كله أثره الواضح فى أسلوبه ومقتبساته .

وقد شغف بذكر الفلاسفة وتمحيص آرائهم : أرسطو ونقولا الدمشقى وابن سينا والغزالى ، وشرح جمهورية أفلاطون والفارابى ورد على ابن سينا وصاول الغزالى « فى تهافت الفلاسفة بكتاب عنوانه « تهافت التهافت » — ومعنى التهافت عندهما هو سقوط التعاليم وانتقاضها — وقد حارب الغزالى حربا سافره ، وحارب ابن سينا حربا داخلية . وأحب منطق أرسطو وقال عنه : إنه مصدر السعادة للناس .

ويبرز ابن سينا فى مساجلاته على نحو يبدو فيه حاد المناقشة ، قاسى

اللهجة ، شديد المراس ، وهو بالرغم من أنه لم يكن مبتكرا أو مبتدعا ، فقد امتاز بمقدرته على الانتقاد ، ووضوح شخصيته فى أسلوبه .

وقد عنى « أبو الوليد » محمد بن أحمد بن محمد بن رشد » الذى ولد فى قرطبه من بيت من أبرز بيوت الفقه والقضاء حيث كان آباؤه من أئمة المذهب المالكى عام ١١٢٦ — عنى بالعلم من صغره إلى كبره ، حتى حكى عنه إنه لم يدع النظر ولا القراءة منذ عقل إلا ليلة وفاة أبيه وليلة زواجه .

وروى أنه سود فيما صنف وقيد وألف وهذب واختصر نحواً من عشرة آلاف ورقة .

وقد وصفه القاضى مروان بأنه كان حسن الرأى ذكيا . قوى النفس . أقبل على علم الكلام والفلسفة وعلوم الأوائل حتى صار يضرب به المثل ، وقيل أنه كان يُقصَد فى الفتوى سواء فى الطب أو الفقه ، بل كان أوحد عصره فى علم الفقه والخلاف ومميزا فى علم الطب .

وقد عرف عند الغربيين باسم « أفروس » ... ترك بلده قرطبة منذ شبابه إلى مراكش ثم ولى قضاء اشبيليه ، ثم قضاء قرطبة ، وعمل طبيبا ليوسف الموحدى فى مراكش . وكان صديقا للفيلسوف ابن الطفيل .

وقيل كانت الدراية عنده أغلب من الرأى . وكان عمقه فى التحليل وقدرته على الشرح أقوى من الابتداع .

* * *

ولم يكن طبيعيا أن يصل « ابن رشد » إلى هذه المكانة الضخمة ، دون ن يلق ما لقيه أمثاله من أحقاد الخصوم ، وعداوة الزملاء ، ومناوأة أصحاب المطامع الذين يقفون فى وجه كل رجل ناجح أو عبقرى ، فإن هؤلاء الأمعات

والأقزام الذين يظهرون فى كل عصر ، لم يلبثوا أن نقموا عليه علو كعبة وترفعه ، ودسوا عليه فى بلاط الخلافة مما عرضه اللاذى والنفى والاعتقال .

وقد ألب الخصوم عليه ؛ المنصور بالله يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن فأوقع المحنة بابن رشد ، حيث حوكم محاكمة استبدادية وصدرت فى حقه عقوبة النفى والتنكيل .

ويرجع المؤرخون ذلك إلى تحول نفسى عند المنصور ، الذى انصرف عن الحكمة والفلسفة وحبب إليه التصوف والالتجاء إلى الأولياد والزهاء ، ويقال إنه مال إلى التصوف بعد مقتل أخيه وعمه ، وكان قد بلغ سن الأربعين وأظهر زهدا وتقشفا وحشونة ملبس ومأكل .

وكان ابن رشد فى السبعين من عمره عند ما طالب أعداؤه باهراق دمه وإحراق كتبه .

وقد صدر الأمر بإخراجه على حالة سيئة ، وإبعاده ، وكتبت الكتب إلى البلاد بترك هذه العلوم جملة واحدة وباحراق كتبه الفلسفية كلها .

وكان ابن رشد وأصحابه قد سيقوا إلى المسجد الجامع الأعظم بقرطبة لمحاكمتهم ، وقالت التهمة أن ابن رشد وأصحابه قد مرقوا من الدين ، وخالفوا عقائد المؤمنين باشتغالهم بالفلسفة وعلوم الأوائل فنالهم ما شاء الله من الجفاء .

وصدر الحكم بأن يسكن الوليد قرية (اليسانة) .

ولم يدافع « ابن رشد » عن نفسه فقد رأى أن ذلك لا فائدة منه إزاء خصومة عاتية أريد بها تحطيم مركزه الاجتماعى .

وقد كان أقصى ما أصاب ابن رشد فى إبان محنتة ، هو تألب العامة عليه

وعلى ولده والاعتداء عليهما ، وقد سجل ذلك فى مذكراته حيث قال :

« إن أعظم ما طرأ على فى النكبة أنى دخلت أنا وولدى عبد الله مسجداً بقرطبة وقد حانت صلاة العصر فثار بنا بعض العامة فاخرجونا منه »

كما تضمن المنشور الذى وجهه بلاط الخلافة إلى أطراف الدولة ذم ابن رشد وتحذير الناس من الاحتفاظ بكتبه وهدد من يعثر على كتاب منها عنده بأن يكون جزاؤه النار ، كما نظمت القصائد فى الطعن على ابن رشد .

ولكنْ أمر نفيه لم يطل فقد عاد من « اليسانة » بعد سنة وظل مهجوراً فى داره لا يدخل عليه أحد على ما يوصف بتحديد الإقامة .

وكانت المحنة عام ١١٩٥ ثم عاد إلى مكانه عند الخليفة مرة أخرى ولكنه لم يعش طويلا إلى أن توفى فى مراكش عام ١١٩٨ م وكان عمره ٧٢ عاما .

ولم يبق من كتبه إلا القليل .

• • •

وتتمثل فى فلسفة ابن رشد عوامل الإيجابية والقوة والوضوح ، فقد دعا إلى تعليم الأمة الفضيلة بقوة الفصاحة والشعر والعبارة ، وقال : أن الحكومة الكاملة لا تحتاج إلى قاض ولا طبيب .

وقال : إن الظالم هو الذى يحكم الرعية لمصلحته لا لمصلحتها . وأفظع أنواع الظلم ظلم القساوسه . وقال إن المرأة تقل عن الرجل فى الدرجة لا فى الطبيعة : أى كمية لا نوعا ، فهى قادرة على ممارسة أعمال الرجال مثل الحرب والفلسفة ، ولكن بدرجة أقل من الرجل .

وقال عن الحرية : إن الإنسان ليس حراً على الإطلاق ولا مطلقا بغير قيد؛ أى إنه ليس مخيرا بقضاء الأحوال الخارجة ، فالعلة المؤثرة فى أعمالنا كائنة فينا أما العلة العرضية فخارجه عنا ، لأن ما يجذبنا مستقل عنا وناشىء عن قوانين طبيعية : أى عن العناية الإلهية .

ويقول : إن النفس متصلة بالجسم اتصال الصورة بالمادة . وهو يقول: إن العقل المتأثر هو عقل الأفراد ، وهو قابل للزوال . والعقل الأزلى هو عقل الإنسان بوصف كونه جنسا ، ووظيفة العقل الفعال تقديم الصور النفسية بهيئة مقبولة للعقل المنفعل فيتقبلها ويدركها .

● دعني أجل مابدت لي سفينـة أو مطيـة
لا بد يقطع سيرى امنيـة أو منيـة

الشريف الأدريسى

هذا علم من أعلام الفكر العربى الإسلامى بجاهلته المصادر العربية طويلا ، ولم تذكره على الوجه الذى هو أهل له ، بينما عنى به الغربيون ، ونشروا ذكره وأشادوا بعمليه الكبيرين : خريطة الدنيا وكتابه « نزهه المشتاق فى إختراق الأفاق » وهو واحد من الجوابين الذين طوفوا فى الأرض وذهبوا إلى أقصى مدى يمكن الذهاب إليه فقد ولد أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأدريسى فى ثغر سبته عام ٤٩٣ هـ من بيت عريق ، هو بيت مؤسس الدولة الأدريسية بالمغرب ، وفى بلدنه نشأ على العلماء والأدباء .

وأحاط بالعلوم والفنون ، وقرأ طويلا ، ثم لم يلبث أن أزمع سياحة طويلة ، بدأها وهو ابن ستةعشر عاما ، حيث تجول فى بلاد شمال إفريقيامبما مدنه وقراه ، ثم عبر إلى الأندلس ، وزار بعض مـدن فرنسا وشاطئها الواقع على المحيط الأطلنطى .

ثم يمم ناحية المشرق فزار مصر والشام وتجول فى سائر بلاد آسيا الصغرى وأقام بالمشرق فترة طويلة .

وقد ظهرت ثقافته واضحة فى أسلوبه الخصب النقى فى كتابه ، كما أنه لم يقف عند هذا الحد ، بل كان له شعر مقبول ، فضلا عن ثقافته الحسابية والهندسية والجغرافية والفلكية التى فرضها عليه اتجاهه كرجل من أعلام الرحالة ومن علماء الجغرافيا ، بل أنه كان إلى ذلك كله عالما بالطب والنبات ، وهو بهذا يرسم صورة « العالم العربى » الذى كان دائما دائرة معارف واسعة .

وليس شك أن الرحلة أضافت إلى شخصيته التى وصفت بالعزة والرجولة خبرة جديدة ، وتجربة عميقة ، كانت بعيدة المدى فى رسم صورة شخصيته كواحد من أصحاب الجباه العالية .

وإذا كان الشريف الأدريسى قد عاد مرة أخرى إلى المغرب دون أن يظفر بما كان يطمع فيه من الوصول إلى مكانة مرموقة فى الشرق تهيىء له الإقامة إلا أنه قد وجد مكانه الحق عندما قام بعمله الصخم الخطير حين اتصل بروجار الثانى ملك صقلية عام ٥٣٣ حيث أخذ يعمل فى صمت ومثابره خمسة عشر عاما حتى أتم مشروعه الخطير الذى لا يزال حتى اليوم موضع التقدير من الباحثين والعلماء .

وقد ذكر أبن أبى أصبعية أن للادريسى كتابا فى الأدوية المقررة ومنافعها ومنابتها . وقال الصلاح الصفدى أنه كان أديبا ظريفا شاعراً زيادة على علمه بالجغرافيا والتأليف فيه . وفى كتاب الخريده للعماد الأصفهانى جمله من أدبه وشعره وقد وصف « بقدرته على توليد المعانى وتجويدها وتوكيد المعانى فى السحر وتشييدها ، لا سيما فى توشية التوشيح ، فانه حاذق زمانه وسابق ميدآنه .

• • •

قصد الأدريسى صقلية بدعوة من ملكها « روجار الثانى » الذى كان حفيا بالدراسات الجغرافية هاويا لها راسخ القدم فى علومها فلما وصل الادريسى دعاه الملك إلى الإقامة فى صقلية وقال له :

أنت من بيت الخلافة ومتى كنت بين المسلمين عمل ملوكهم على قتلك ومتى كنت عندى أمنت على نفسك .

وكانت جزيرة صقلية قريبة العهد بالحكم الإسلامى ، فقد سقطت فى يد روجار الأول والد الملك روجار عام ٤٨٤ ، وما تزال الحضارة العربية هى الغالبة ، وقد عرف بالتسامح والإستنارة ولم يلبث أن أحاط الشريف الادريسى بتقدير بالغ ورتب له كفاية لا تكون إلا للملوك. ويقول الصفدى أنه كان يجىء إليه راكبا بغله فاذا صار عنده تنحى له عن مجلسه فيأبى فيجلسان معا .

وطلب روجار إلى الادريسى تأليف كتاب فى وصف مملكته الواسعة مع بقية الممالك ، متجنبا المزاعم والخرافات والأوهام .

فبدأ الادريسى العمل فوراً تمده حصيلة ضخمة من ملاحظاته التى قيدها خلال جولاته فى أطراف آسيا وأوربا وأفريقيا .

وبعث روجار فاحضر له من أطراف مملكته كل من له علم بشىء من أحوالها وصفاتها، فتجمع عنده عدد من السفار المتجولين حيث جمعت معلوماتهم وسجلت.

وأمضى الادريسى خمسة عشر عاما بجمع مواده وينسقها . ولم يقف عند هذا الحد ، بل أنه قام بعمل ما اسماه « لوح الترسيم » وهو تصميم جغرافى للكرة الأرضيه . ومشروع خريطة للعالم .

وقد كان هذا العمل مقدمة ، لخريطة جامعة رسمها على صفيحة لتكون بمنجاة

من التلف ، وقد[1] أمر الملك أن تفرغ له دائرة من الفضة الخالصة عظيمة الجرم ضخمة الجسم في وزن أربعمائة رطل بالرومى ، فى كل رطل منها مائة درهم وأثنا عشر درهما ، فلما كملت ، أمر الفعلة أن ينقشوا فيها صور الأقاليم السبعة ببلادها وأقطارها وسيفها وريفها وخلجانها وبحارها ومجارى مياهها ومواقع أنهارها وعامرها وغامرها ، وما بين كل بلدين فيها وبين غيرها من الطرقات المطروقة والأميال المحدودة والمسافات المشهورة والمراسى المعروفة ، على نص ما يخرج إليهم ممثلا فى لوح الترسيم ولا يغادروا منها شيئا » .

وكانت هذه الخريطة الجامعة هى التصميم العام لكتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، كما كان هذا الكتاب التفسير والشرح لخريطة العالم التى إنتهى منها عام ٥٤٨ هـ .

وقد تنازل روجار للشريف الادريسى بما زاد من الخريطة وهو حوالى ٢٥٠ ألف درهم من الفضة واضاف إليه مائة ألف درهم أخرى . ومركبا كان قد جاء إليه من برشلونة مشحونا بأنواع الأحلاب الرومية فاعطاه كل هذا جائزة له على عمله العظيم .

ولعل أبرز ما يسجل للادريسى أنه كان يرى أن الأرض مكوره على شكل بيضه وأنها مقسمة بواسطة خط الاستواء .

ولم تعمر الخريطة طويلا فقد مات روجاز فى نفس العام وخلفه أبنه ، ولم تلبث الخريطة الفضية أن سطا عليها الثوار بعــد إتمامها بسبع سنوات عام ١١٥٥ واقتسموها أطرافا ، وأن بقيت أصولها من الأوراق محتفظة بكنوزها القيمة .

---

(١) عبد الله كنون : مشاهير رجال المغرب — ٢٤ .

وقد وصف المؤرخـون كتاب الادريسى بأنه أوفى كتاب جغرافية تركه لنا العرب وأن مايحتويه من تحديد المسافات والوصف الدقيق يجعله أعظم وثيقة علمية جغرافية فى القرون الوسطى .

وقد عاش الأدريسى بمعية الملك غليوم مدة ألف فيها كتابا جغرافيا آخر وربما بلغت هذه الفـــترة أثنى عشر عاما فقد توفى الشريف الادريسى عام ٦٥٠ هـ ١١٦٥ م

• لأزين مقامك على الشاطىء لان هناك فى الاعماق صوت الحياه فعش فى البحر وصارع الامواج فان خلود الحياة فى الجهاد .

اقبـــال

لم يكن إقبال شاعراً فحسب . بل كان فيلسوفا ، واضح المعالم ، وكان سياسيا قوى العارضة يتميز عن شعراء عصره وجيله بالهدف المحدد ، والتفرد برسالة خاصة كاملة ، عاش لها واستصفى لها فنه ، وفكره ، ووقف عليها عمله ، وترك بها للشرق مناراً مازال يضىء وسيظل يضىء ما بقى الشرق والاسلام .

آمن اقبال بأن الشرق قد تجنب الطريق السوى الذى رسمه له الاسلام : هذا الطريق الواضح المبسط . وآمن بأن الانسانية غرقت فى فلسفات معقدة مضطربة . هى جماع منوعة لا يستقيم على وضع محدد . وكان على يقين من أن الشرقيين قد أنكروا ذاتهم ووجودهم وأغرقوا فى الايمان بفلسفة القضاءوالقدر . وآثروا النوم والتواكل فى الوقت الذى غرق الغربيون فى لجة من الشك والفساد والانحلال .

فكان لا بد للشرق من دعوة إلى اليقظة . وكان اقبال قد وطن نفسه على هذه هذه الدعوة . ومضى إقبال يدرس : درس تعاليم نيتشه فى السوربان ، وبرجسون

فى التطور المبدع .وكانت فى النقد . وقرأ جمهورية أفلاطون ، وطالع أدب الفرس . وقرأ شعر حافظ الشيرازى . وأعجب بمذهب جلال الدين الرومى ثم قرأ « القرآن » فى حدود القاعدة التى وضعها له والده « كأنه أنزل عليك » وأعجب بالغزالى وأحب مذهبه فى تهذيب النفس وتثقيفها .

وأقام من خلاصة هذه المذاهب والدراسات : مذهبا جديدا . يستمد من الاسلام والروحية قواعده . وأضاف إليه خير مافى الحضارة الديمقراطية والثقافة الغربية . فأنشأ فلسفة متفائلة باسمه . كلها إيمان وقوه وبناء . وقال إنه ليس للاسلام أى حدود مكانيه . أو نهايات زمنية . وأن الاسلام بذاته وطن المسلمين قبل أوطانهم . ودعا « إلى معرفة النفس واطلاق قواها . وأخذها بالتربية والتوسيع . تربية تقوم على أساس التحرر من كل قيد » .

وقد عارض اقبال أفلاطون الذى كان يقول أن غاية الانسان « الموت » وقال أن غايته هى « الخلود » وأوضح الفرق بين ديمقراطية أوربا ، وديمقراطية الإسلام وقال « أن أوربا أنشأت ديمقراطيتها من التجديد الاقتصادى للهيئات الاجتماعية . ولكن نيتشه على كل حال ينكر حكومة الجماعة . ويؤسس جميع الثقافات العالية على ظهور وتثقيف « سبرمان » ولكن هل العامة حقا موضع القنوط . أن الديمقراطية الاسلامية لم تنشأ من تجديد الفرص الاقتصادية . بل هى مبدأ روحانى معناه الاعتراف بأن كل انسان مركز للقوى الخفية التى يمكن أن تكشف امكانيتها بتربية طراز خص من الأخلاق والسجايا . وبناء على ذلك فالاسلام قد خلق من عامة الناس المثل العليا فى الحياة والقوة . أو ليست اذن الديمقراطية الاسلامية فى القرون الأولى إلا دحضا عمليا لأفكار « نيتشه » ؟

* * *

يقول اقبال « يرجع الفضل فى كل ما انشأته من شعر أو نثر إلى توجيهات أبى رحمه الله قد عودنى تلاوة القرآن الكريم بعد صلاة الصبح من كل يوم وهو كلما رآنى سألنى : ماذا أصنع فاجيب بأننى اقرأ القرآن الكريم . ثم أنه يعود إلى القاء هذا السؤال فى صبيحة كل يوم فاجيبه بالجواب نفسه حتى دفعنى الفضول والضجر إلى أن أقول له « يا والدى : أنت ترانى اتلو كتاب الله فلم تلقى هذا السؤال على وأنت تعلم جوابى » فقال رحمه الله « بل اننى أردت أن أقول لك « اقرأ القرآن وكأنه أنزل عليك » ومنذ ذلك اليوم بدأت اتفهم القرآن ، واقبل على دواخل كلماته ومعانيه ، فكان من أنواره مااقتبست ومن بحره ما نظمت »ومن هذه النقطه بالذات تبدأ مفاتيح حياة اقبال وأفكاره :

تملقه بالمثل المليا والمعانى النفسية وأدب القوة والايمان بالايجابية والتأكيد الدائم بأن الحياة جهاد متصل . وضرورة العمل لخلق شىء جميل من الحياة . والحرص على أن تكون حياة الانسان قائمة على إيمانه بنفسه . وقال أن الانسان ترابى يريد أن يتحرر من التراب .

ولقد طاف اقبال ببلاد العرب والاسلام وكانت أمنيته أن يرى فى كل بلد يحل فيه صورة الانسان الكامل المؤمن بذاتيته .

وفى كل مكان يمر به تهتز روحه للأمجاد العربية والاسلامية ، والتراث الضخم والجاه العريض الذى ضيعناه .

وعندما مر بالأندلس ووقف عند جبل طارق لم تلبث عاطفته أن دفعته إلى شعر خالد :

« اشعل طارق بن زياد فى سفنه على شاطئك .

« قيل له هذا جنون لا يقبله العقل .

« كيف السبيل للعودة إلى الديار .

« بعدت الشقة وانقطع الطريق .

« فضحك وامتشق حسامه وانطلق قائلا .

« كل ملك لنا . لأنه ملك الله .

وفى جزيرة صقلية دمعت عيناه وذكر المجد القديم .

« صقلية عليك سلام .

« اقبلى ياعيونى الثرثارة بالدموع والدم .

« فها هى تربة المدنية الحجازية قائمة أمامك .

« هذه البلاد كانت يوما ما ملكا للعرب .

« حين كانت البحار ملعبا لسفنهم فى سالف الأزمان .

« نعم . . العرب الذين زلزلوا عروش الأكاسرة والقياصرة .

« والذين كانت سيوفهم يهتز لها البرق ويرتجف الرعد .

« اشرحى حالك لى . وبوحى بما تسكنه جوانحك من تباريح الشوق .

« فأنى رجل قتله الحب واضناه هوى أرض مثل أرضك .

« فأنا بقية من الركب الذى كنت منزلهم ومحط رحالهم .

هذه لفتاته إلى الماضى وهى فى مختلف صورها قوة دافعة إلى الأمام ، وليست من نوع شعر رثاء الماضى أو التفجع على صفحة انطوت ، فقد آمن بأن يجعل من الشعر وسيلة إلى غاية كبرى هى ايقاظ الشرق من سباته الطويل . وهو فى جميع نبضات شعره يؤمن بالانسان ويدفعه إلى المعالى ، ويدعوه إلى العمل ، والابتسام

للشدائد ، والهجوم على الأهوال ، والثقة باليسر بعد العسر ، والفجر بعد الظلمة .

وعند ما ترجمت بعض آثاره إلى الانجليزية قالوا : أنه تأثر بالفيلسوف نيتشه فى كتاباته عن الرجل الكامل أو السوبرمان ، فقال اقبال فى الرد على ذلك بأنه يدعو للاخوة التى دعا إليها الإسلام على أن يكون أخوة بين أحرار . وان القوة هى التى تجعل لهذه الاخوة قيمة .

ويرى اقبال أن « الحق » إن لم يكن فيه حرقة القلب فهو فلسفة ، فإن مسته نار القلب كان شعراً .

ويرى أن الفنون انما تقصد إلى أن يتخلق الانسان بأخلاق الله ، والفنان الاصيل هو الذى يجمع هيامه بالفن بين الجمال والقوة .

وقال فى ذلك : ان الفن لا ينبغى أن يكون محاكاة للطبيعة ، بل ينبغى أن يكون تأثير الانسان فى الطبيعة . والفنان الحق خلاق لا مقلد ومن جماع فلسفته فى الانسان والحياة قوله : أكمل الناس أقربهم إلى الله . وهو لا يرى أن يفنى وجود الانسان فى وجود الخالق كما يقول الصوفية ، بل أن يثبت وجود الانسان .

وهو مؤمن بأن هدف الانسان هو اثبات ذاته لانفيها ، وعلى قدر تحقيق انفراده أو وحدته يقرب من هذا الهدف . وعلى قدر بعده من الخالق تنقص فرديته. والانسان الكامل هو الأقرب إلى الله .

فالانسان انما يقوم بذاتيته أى بما يبلغه من الكمال العقلى والخلقى ، وهو لا يستوفى حظه من هذا الكمال إلا إذا عرف نفسه حق المعرفه وأخذها بالتنمية والتقوية . ووثق بها وركن إليها ، وعمل وجد ، وسعى وكد ، وتعشق الشرف والمعالى .

* ٥ *

وقائع حياة محمد اقبال موجزة يسيرة فهو قد ولد ببلدة سيالكوت بالبنجاب

عام ١٨٧٣ وحصل على أرقى درجات كلية لاهور وتتلمذ على « توماس أرنولد » وسافر عام ١٩٠٥ إلى انجلترا حيث التحق بجامعة كمبردج ، ثم غادرها إلى جامعة هيدلبرج بالمانيا ، حصل على أجازة دكتوراه فى الفلسفة ١٩٠٨ كما حصل على أجازة دكتوراه فى القانون واشتغل بالمحاماة بعد عودته من أوربا .

وكان فى أفكاره تلميذا على رائد الاسلام فى الهند : احمد خان ، كما كان صديقا لمحمد على جناح ، وقد اشتغل بالسياسة وعين عضوا فى المجلس التشريعى بالبنجاب واشترك فى مؤتمر المائدة المستديرة فى لندن .

وقد دعا عام ١٩٣٠ إلى وجوب انشاء دولة إسلامية فى شبه القارة وكان أول من أطلق اسم (باكستان) على فكرة الدولة الاسلامية . وقد كونها من أوائل حروف المقاطعات الاسلامية التى دعا إلى ضمها .

وقد رفض التقدم للوظائف الحكومية فى الهند لأنهم كانوا يحاولون جعلهم أداة فى يد الاستعمار . فلما تقدم إلى العمل كان الانجليز قد أحسوا بروحه القوية الدافعة فاعتذروا بأنه غير لائق ، لقد أضنت عيناه القراءة والبحث ، وكان هذا كسبا للفكر إذ جرفه عن الوظيفة إلى الشعر والعمل الكبير .

ثم قال له الانجليز : أن الشرق لن توقظه إلا حضارة الغرب فركب الباخرة إلى لندن ليدخل جامعة كمبردج ، فلما أمضى بها فترة من الزمن أرادوا له قشور العلم وأراد هو جذوره ، لذلك ترك لندن إلى المانيا حيث راح يدرس الفلسفة وحصل على أجازة الدكتوراه فأمضى أربع سنوات فى أوربا .

وأدرك « اقبال » من جولته هذه فى أوربا[1] أن الحضارة الغربية سراب

---

(١) عبارة اقبال

خداع يبهر العيون جمالها ، وأن خير سبيل لانقاذ البشرية أن يعودوا إلى حظيرة الدين ، لأن الغرب أصبحت سياسته قريبة لسياسة الله فى ملكه ، وعمادها هم الأغنياء والملاك والرأسماليون .

وقد خلق الله من النار ابليسا واحداً ، وخلقت سياسة الغرب من الطين ألوفا من الأبالسة ، وهكذا ضلت قافلة البشرية طريقها لأنها فقدت زادها ، ومن المؤلم أن لا تدرك البشرية عظيم مافقدت وضخامة ماضاع منها ، لقد أصبحت أوربا عقبة فى سبيل تقدم الانسانية وسيرها فى طريق الرشاد » .

وهاجم الغرب فى كثير من شعره .

« يا ساكنى ديار الغرب .

« أن الذى توهمتموه ذهبا خالصا سترونه زائفا .

« وأن حضارتكم ستبخع نفسها بخنجرها .

« وأن العش الذى يبنى على غصن دقيق لا يثبت .

وقد لبث اقبال فى كليات الهند وحيدر أباد وعليكره يلقى محاضرات ويعد ابحاثا ، ثم لم يلبث أن استقال وقال : انى لا أستطيع أن أحدث الناس بما فى نفسى ، مادمت فى خدمة الانجليز ، وأنا اليوم حر ماشئت قلت وما شئت فعلت ومن رأيه فى حضارة الغرب قوله :

« أنا لا أقبل الوطنية كما تعرفها أوربا .

« انى أرى فيها بذور المادية الملحدة .

« وهى عندى أعظم خطراً على الانسانية فى عصرنا .

وكان لا يلبث أن يردد دعوته إلى القوة والحرية : وكانت صيحته فى زمن كانت

الهند فيه تئن تحت سلطان الأجنبي والنفوس ممتلئة بالخوف عاجزة عن التفكر فى تحطيم القيود .

« إن الحياة بدون حرية لا تستحق أن تحيا :

وقوله : « إذا كنتم عبيدا أو كانت لكم عقلية العبيد فان سيوفكم انذاك ستصبح عديمة النفع أما إذا كنتم مؤمنين حقيقيين تؤمنون حقا بجوهر ميراثكم السالف فان نظرة منكم تستطيع أن تغير نظام العالم الراهن » .

وقد عرف اقبال باسم « شاعر الاسلام » وقد كان طوال حياته محبا للسلام يكره التعصب الدينى . وقد جمع بين التبريز فى القانون والشعر والفلسفة وقد ألف دواوين تسع : ضرب الكليم ، بيام مشرق ، أزمغان حجاز ، بال جبريل وله مؤلف ضخم هو مجموعة محاضراته فى جامعة اكسفورد هو « اعادة بناء العقيدة الاسلامية » .

وحصل على الدكتوراه فى الفلسفة برسالة موضوعها « تطور الفكرة العقلية فى ايران » وكان ينظم شعره بالأوردية ثم تحول عنها إلى اللغة الفارسية ، وقال : لقد استخدمت الفارسية لأنى لا أستطيع النظم بالعربية، وقد قدم مصر وهو فى طريقه إلى المؤتمر الاسلامى الذى اجتمع فى المسجد الأقصى عام ١٩٣١ واستقبله كاتب مصرى شاب هو الأستاذ فتحى رضوان وزير الثقافة والارشاد اليوم وهو ينادى المسلمين نداءات العزة والقوة :

« ان المسلم ليس يتعبد لأحد سوى الله .

« وهامته لا تنحنى لأى فرعون على الأرض .

« ما الذى أباد استبداد كسرى وقيصر .

« أنه قوة خالد وفقر أبى ذر وصدق سلمان .

* * *

ويقول :

« ليس العاشق من يحرك شفتيه متأوها من الحب .

« أن العاشق هو الذى يحمل العالم على كفه .

« هو الذى يخلق عالمه بنفسه .

« ولا يرضى بغير المجد .

« كن لهيبا واحرق القش .

« ماسوى الله باق .

« لم تخاف من الباطل .

« أنت مسلم فعمر قلبك بالامانى .

« واجعل شعارك فى كل زمان : لا تخلف الميعاد .

« اعتمد على نفسك ولا تشتكك من العالم .

« لأنك لو غيرت نظرتك فالعالم يتغير لك .

« أنظر إلى نفسك .

« أن قوة الطوفان كامنه فيك .

ويقول : لقد تلقيت درسا من أسراء محمد ، وهو ان السماء ليست بعيدة عن متناول البشر . وهدفه دائما : تحقيق الانسان الكامل وبلوغ الخلود الشخصى وهو الذى يخاطب الحق تبارك وتعالى :

انت بحر ماله من ســـاحل　　　وأنا الجـــدول فيه الوشـــل

فاجعلن شطى حداً واصـــلاً　　　او فدعنى دون شط يفصـــل

وهو يرى ان الحياة تـكون بممارسة الحياة .

ويقول : ان المسلم يعيش حياة كالشمس يغرب من جهة ليشرق من جهة اخرى فهو دائم الاشراق والحياة لا يغيب .

ويقول : ان الذين يفتخرون بكيماء الذهب صاروا غباراً فى ممر الطريق والذين كانوا يضمون جباههم فى التراب هم الذين صاروا يصنعون الـكيماء .

* * *

و إقبال يحب العرب ويدعوهم إلى المجد :

« الصين لنا والعرب لنا والهند لنا والـكل لنا .

« أضحى الاسلام لنا ديناً وجميع الـكون لنا وطنا .

« ياظل حدائق أندلس ، أنسيت معانى عشرتنا

« يادجله هل سجلت على شطيك مآثر عزتنا .

« يا أرض النور من الحرمين وياميلاد شريعتنا .

ويقول :

أمة الصحراء ياشعب الخلود — من سواكم حل إغلال الورى

أى داع قبلكم فى ذا الوجود — صاح لا كسرى هنا أو قيصراً

من سواكم من حديث أو قديم — أطلع القرآن صبحا للرشاد

هاتفاً من مسمع الـكون العظيم — ليس غير الله ربا للعباد

لا تقل أين ابتكار المسلمين — وسل الحمراء وأشهد حسن تاج

* * *

فإذا اتجه إقبال إلى « الانسان » حدثه عن مكانه الحق فى الحياة ، وقال له : «أن الحياه جهاد دائم مستمر ، والنفس تقهر العقبات المادية ، وأن الغايه القصوى للنشاط الإنسانى هى حياة مجيده فتية مبتهجة ، وكل فن إنسانى يجب أن يخضع لتلك الغايه . وقيمه كل شىء يجب أن تحدد بالقياس إلى تلك القوة على إيجاد الحياة وازدهارها . وأعلى فن هو ذلك الذى يوقظ الارادة القائمة فينا ، ويستحثنا على مواجهة الحياة فى رجولة . وإن كل مايجلب إلينا النعاس ويجعلنا نغمض عيوننا عن الحقيقة الواقعة فيما حولنا إنما هى رسالة انحلال وموت » .

وقد ادى قبال رسالته على أكمل وجه وأتمه فكان شاعر الاسلام الذى صور مقاصده وأبرز فضائله . وشاعر الشرق الذى أشاد بمآثره ونخر روحانيته ، وشاعر النفس الانسانية الذى آثار خفايا النفس ، وأشاد بالحرية .

وفى أواخر أيامه ، بح صوته وجهد ، وتوفيت زوجته فى نفس العام(١٩٣٥) فكان لذلك أثره الشديد على تفسيته وترادفت عليه العلل أصاب بعضها القلب ، ولكن تأثر جسمه لم يضعف قوة روحه ، ولم ينل من زكانة عقله ، فلم يفتر عن نظم الشعر .

فلما جاءه الموت قال له : إنى لا أرهب الموت ، أنا مسلم ، استقبل المنيـــة راضياً مسروراً وفاضت روحه فى داره بلاهور فى ٢١ إبريل ١٩٣٨ وهو ينشد :

نغمات مضين لى هل تعود   أنسيم من الحجاز يعـــود
آذنت عيشتى بوشك رحيل   هل لعلم الاسرارة قلب جديد

وكان مما وجهه إلى ابنه جاويد يوصيه :

« أن فى عصرنا هذا قحطا فى الرجال . وعسير فيه الظفر بلقاء رجال الله ، فإن تكن سعيد الجد لقيت أحد اصحاب البصائر » .

● أيام أسفارى طويله : وطريق بعيد . خرجت من موكب الشعاع الأول وجبت العوالم الخالية . وتركت شيئاً منى على ألوف النجوم والكواكب ولكن أبعد الطرق أقربها إليك .

على المسافر أن يطرق كل باب قبل الوقوف على باب نفسه . وعليه أن يهيم فى مسرح العوالم قبل أن يهتدى إلى قدس إقداسه .

عيناى كم جابتا من فضاء قبل أن أغمضهما وأقول : أنت هنا » .

طاغور

« ... قد يحسب بعضكم أنى فيلسوف . ولربما كان لى من الفلسفة حظ . إلا أن الحظ لا يطغى على شعرى ويلقى به إلى قاع سحيق لا يرى من خلاله . إلا كما ترى الاسماك الصغيرة ، إنما أنا كالكثير من أهل الهند لاتتعدى فلسفتى الشعب . وتلك عندى فلسفة .

من أناشيد الريف عندنا أغنية « الطائر المجهول » يدعو الريفيون فيها الطائر المجهول فلا يجيد الدعاء ، ولا يعرفون من أمره إلا ما يدلهم عليه تصورهم . أما العقل فيعجز ولا يستطيع أن يصل إلى شيء . هذا الطائر المجهول هو اللانهاية التى نتصورها ولا نلمسها إلا بعد الايغال فى البحث عنها .

والشعر هو وسيلة الوصول إلى الحقيقة ، لأنه جواب الروح الخالده ، ونداء الحق الـكائن فى كل مكان · والشاعر هو الذى يرى الحقيقة ويحسها ويبنيها » ·

هذه هى رسالة الشاعر كما يصورها طاغور الشاعر · « والشاعر » هو إحدى صفات طاغور وصفته الأخرى هى الرحلة والسفر · فقد ارتحل عشر رحلات طويلات . كانت كل منها جوله ضخمة حول العالم . كانت أول هذه الرحلات عام ١٩٠٠ وكانت أخراها بعد ثلاثين عاما أى عام ١٩٣١ وكان ذلك وهو فى سن السبعين ·

لقد كانت الرحلة جزاً من حياته لايتميز · كانت شغفه وحبه وشباب حياته والعامل الضخم فى تجديد روحه وعاطفته ·

كانت الرحلة دعوته للتبشير بفـكره السلام وتعريف العالم بجامعته : جامعة الطفل ·

« أن نفسى تلبس اليوم رداء المسافر وتهيم .

« يلح عليها ظمأ ثائر .

« فهى متلهفة إلى الاندفاع فى الطريق .

« انالمسافر الأبدى الضارب فى بطاح الأرض يدرك أوضاع الشعوب باحثا عن نقاط تلاقيها .

« أغوص فى أعماق الأشـكال لعلى أصيب اللؤلؤه الفريدة العارية من كل شـكل .

« تركت السفر من مرفأ إلى مرفأ على زورق تصنعه الأنواء .

« لقد مضى زمن كنت ألهو به فى مصارعة الموج .

« إنى أصبو الآن إلى الموت فى حضن من لا يموت .

« أيا أيها اللحن الأبدى سأوقعك على معزفى .

لقد قطع طاغور فى رحلاته العشرة مساحات ضخمة ، زار خلالها عشرات المدائن والأقطار ، وعاود زيارتها مرات ومرات. قصد أولا إلى الغرب فزار مدائن أوربا ثم قصد إلى المشرق فزار الصين واليابان . ثم زار أمريكا ثم عاد إلى أوربا وإلى جنوبى أمريكا والأرجنتين .

وقد وقعت له فى السفر أحداث ، ودهمت العاصفة الباخرة توزأمارو التى كان يركبها فى خليج البنغال وكادت تغرقها . وبلغ به حب الاسفار حتى صار سليقة فما يكاد يستقر فى بلاده حينا حتى يعاوده الحنين مرة أخرى ، ولم يمنعه بلوغه سن السبعين أن يسافر ويركب أهوال البحار .

كان يؤمن بأنه يؤدى رسالة ، ويهدم الحواجز الضخمة القائمة بين الشرق والغرب .

* * *

ولكن هل وجد (طاغور) أوربا كما كان يحلم بها : أنه يصور ذلك فيقول « لا أزال أذكر أننى كنت فى عهد الطفوله أترقب اليوم الذى أستطيع فيه أن أزور أوربا وكنت أحلم بأن أرى من الجلائل لا فى الأشياء المادية بل فى المميزات المعنوية وفى الأفكار . وكنت أتوق إلى مقابلة أهلها الذين لم يكتفوا بأن يقودوا الانسانية فى حياة الفرد بل قادوها فى حياة الجماعة . وكنت أحسب أن الروحانية لا تزال عالية الأنغام

واعتقدت انى سأرى فى الغرب ضمائر صادقة بين الشعوب فى كل الأركان ،

وانى سأجد قارة يجاهد كل سكانها فى سبيل المثل العليا ولكن هذه الآمال اخفقت فى سنة سفرى إلى مايسمونه الدنيا المتمدينة — أوربا وأمريكا واليابان — وجدت هناك كل الجمهور متجها إلى الماديات ووجدت الانصراف تاما عن الروحانيات . فالدول العظمى فى الوقت الحاضر تسعى هى ورجالها العظام إلى الازدياد فى الضخامة وهذا دليل على افتقارهم إلى العظمة »

ولا يؤمن « طاغور » بعزلة الثقافة ويقول أنه « لن يمكن بعد اليوم إبقاء ثقافتنا مقيدة ولو بقيود من ذهب . فقد صرنا فى زمن تنهار فيه جميع الحواجز المصطنعة ، ولن يبقى من الثقافة إلا ما يتفق مع أساسه ويتلاءم مع الثقافة العالمية .

وهو لاينفر من أى ثقافة بطابعها الأجنبى ، بل على النقيض يعتقد أن الصدمة التى تحدثها مثل هذه الثقافة ضرورة لحيوية طبيعتنا العقلية .

ويقول « هناك من يتعلق بالجديد إلى حد ينكر على الماضى آثاره . ويعتقد أن تراث الماضى ليس إلا افلاساً . وأن أسلافنا لم يتركوا لنا رصيدا ، أولئك يرفضون أن يصدقوا أن الجيش الذى يزحف إلى الأمام يعتمد فى غذائه على المؤخرة » .

ويؤمن طاغور بأن رسالته هى البحث عن الجمال المطلق الذى يهدى إلى الله :

« أنا رجل صوفى وجهادى الأكبر فى الحياة هو البحث عن الجمال المطلق يهدينى إلى الله . وقد أبصرت هذا الجمال فى السماء الصافية والزهرة الناضرة والجدول الرقراق ، والعذارى الحالمات الساحرات ، ولكن النشوة العلوية لم تهز قلبى ولم تفتح مغاليق بصيرتى إلا عندما استطعت الحياة فى جنة المعانى الماثلة فى وجوه الأطفال . وفى الحق إنى لم أسعد ولم يتصل ضميرى العاجز بضمير الله إلا يوم أدركت أن الطفل هو المثل الأعلى وأنه فى هذه الغاية رسول الله » .

وكان يرى أن مهمته الدعوة إلى « تجارة عالية واسعة النطاق فى القلوب والعقول وفى التعاطف والتفاهم . ويلخص فلسفته فى قوله « إذا كانت الأمهات تلد والقبور تبلع فلم لا نعيش الفترة القصيرة فى حب وهناء ...

وقد برع فيما أطلق عليه إسم « الحب الصوفى » فجعل ديانته ينبوعا لفكره ، وبذلك أخرج من الأساطير المنتشرة فنا جديدا . وهو يؤمن بأن قوة الحب هى قوة التضحية . وأن قوة التضحية هى سبيل الحياة والحرية ، وأن لاحياة ولاحرية للأفراد والأمم بدون حب ، تستحيل عند الافتضاء إلى تضحية كاملة » .

وهو يؤمن بأن كشف الحب جريمة لا تغتفر ، ويقول « أكتموا الحب بصدوركم حتى تذهبوا إلى قبوركم » .

وقد أحب «طاغور » — منذ شبابه الباكر — تأمل أسرار الطبيعة المحيطة ، ويطرب إلى نغمات المياه المتساقطة ، ويأنس إلى ظلال شجرة التمر ، وزقزقة العصافير ، ويتطلع إلى جبروت جبال الهملايا ، ويقول : كنت يوما وأنا فى سن الثانية عشرة أرقب الشمس تغرب وراء صف من الشجر ، فتحدثت إلى نفسى ، أليست الشمس تطلع غدا لتغرب ويتجدد مطلعها ومغربها وهى أبداً باقية ، كذلك نحن نطلع ونغيب ولكنا أبداً باقون فى اللانهائية الشاملة لكل ما فى الوجود .

ويرى طاغور الحياة معنى يفوق معنى الوجود « حركة أبدية لا تتوقف » .

* * *

وقد نظم « طاغور » الشعر وهو فى الثامنة ، وترجم إحدى روايات مكبث فى الثالثة عشرة إلى البنغالية وهو ككل أمثاله من العباقرة لم يطق المدرسة ولم يحبها

وقد ثقلت عليه دراسة الحقوق ، فترك القانون ، وأنصرف إلى الشعر، وطالع ملتون وشكسبير وشلى وكابير .

ثم سافر إلى لندن ودخل كلية بريتون ، أربعة عشر شهراً تضاع خلالها فى الأدب الأنجليزى ، ثم درس الموسيقى وأصدر أول دواوينه « أناشيد المساء » وهو فى سن العشرين .

وفى سن الخمسين لم يعد الشعر يكفى للتعبير عن مشاعره ، فاتجه إلى الألوان والخطوط والفرشاه وأحل الرسوم محل الكلمات .

وهو من أسرة برهمية ولد فى كلتا فى ٧ مايو ١٨٦١ . ونشأ فى أحضان الزهور والتقشف ومن اتصال ظاعور ببيئته وتمشقة لفلسفة البراهمة وجد الوحى الذى أمده بذلك اللون الصوفى من شعره الفلسفى . وقد جعل روحانيته ينبوعا لفكره، وبذلك أخرج الأساطير القديمة فنا جديدا ، ويعد « ظاغور » تمثيلا صادقا لروح الشرق ، ذلك الروح الإنسانى الذى يحتضن معانى الحب والأخاء والتعاطف .

وقد رأى فى كل إنسان أخاه ، ورأى نفسه جزءاً من الكون ودعا إلى استنهاض الهمم المتقاعسة القانعة بالسلبية والتواكل .

وهو الذى يقول :

« سأحطم الحجر ، وأنفذ خلال الصخور ، وأقبض على الأرض واملؤها نغما.

« سأنتقل من قمة إلى قمة ، ومن تل إلى تل وأغوص فى واد وواد .

« سأضحك بملء صدرى وأجعل الزمن يسير فى ركابى

« إن الإنسان إذا ما بلغ حداً من العمر رأى العمر فارغا ، وأن كل شىء فى قلبه ويؤمن بالتجدد فى إطار اللانهائية الشاملة :

ويؤمن طاغور بأن الروحية تنتصر على المـادية : إننى أؤمن بأنه عندما تبسط القوى المعادية للبشرية سلطانها يولد أفراد من ذوى الإيمان الراسخ بالبشرية فيدركون إدراكا واعيا حقيقة الخطر القائم على الإنسان . ويلعبون دورهم دون خوف أو تردد غير عابئين بما يلحقهم من أذى أو إهانة » .

* * *

ويرى طاغور أنه لم يجد فى طفولته من رفيق إلا الطبيعة : « إن أهم ما يميز طفولتى هى العزلة ، فلقد كان أبى كثير التغيب ، ولم أره إلا لماما ولكنه حين يحضر يملأ الدار بوجوده فترك فى حياتى أثرا عميقا لا تقوى الايام على محوه إن الحياة قد حرمتنى من أعز مخلوق عندى ، حرمتنى من أمى ، وأصبحت بعد وفاتها أمضى سحابة نهارى ، من مطلع الفجر إلى مغيب الشمس ، إلى نافذتى ، وأرسم فى مخيلتى ما كان يجرى فى العالم الخارجى ، فأغرمت بالطبيعة من عهد لا أكاد أذكره ! لقد كان صوابى يطير جنونا حينما كنت أتأمل كسف السحاب تتلو فى السماء بعضها بعضا ، فأحسست - حتى فى تلك الأيام الباكرة من حياتى — أن معى رفيقاً يلازمنى ، وزميلا لا يفارقنى . ولقد كان لى أبداً زميلا عطوفا مخلصا ، وإن كنت لم أعرف ماذا أسميه ، وبماذا أناديه ، لقد همت بالطبيعة هياما شديدا ، لا أستطيع أن أعبر لك عنه فى كلمات ، وكانت الطبيعة لى دائما صديقا محبا ، لا يفتأ كل يوم تكشف لى هذه الدنيا عن لون من الجمال جديد » .

وكان موت أمه وهو فى السابعة بعيد الأثر فى حياته وتكوين شخصيته .

« لما رأيتهم يحملون أمى فى الطريق المظلل بالشجر وأنا أمشى فى هذا الموكب الرهيب وراء النعش حتى المقر الأخير ، ذكرت أنها لن ترجع إلى سريرها فى البيت وشعرت بالألم يقبض بيده النارية على قلبى الصغير ...

« لقد انطفأ المصباح الذى كان ينير حياتى » .

وفى سن الثلاثين . اجتاح الموت دارهم ، ماتت زوجه وابنته الكبرى وأباه وأبنه الأصغر كل ذلك فى خلال سبع سنوات متوالية فأقفرت الدنيا فى عينيه ولم يجد إلا قلمه يشكو إليه ...

«إن عاصفة الموت التى اجتاحت دارى وقصفت ابنائى ،كانت على نعمة ورحمة ، لقد اشعرتنى بنقصى. وحملتنى على طلب الكمال، والهمتنى ان العالم لا يفتقد ما يضيع منه . عرفت حقيقة الموت : انه الكمال المطلق ، وليس من شىء فى الحياة يذهب عبثا ، بل مرده إلى رجعه ، تاركا عبرة نسلو بها » .

* * *

وفى سن الخمسين جدد « طاغور » حياته .

« عندما عبرت الانطلانطيق وقضيت على ظهر السفينة غرة العام الجديد ، ادركت ان مرحلة جديدة من حياتى قد حلت .. وهى مرحلة الرحالة المسافر » .

وقد قال انه جدد شبابه ، وكون رأيا جديداً أضاء جوهر عقله فى هذه السن ، تغلب به على اليأس والألم، وخرج بعزيمة جديدة لا تعرف الخور، وقد ظل مشبوب العاطفة إلى هذه السن .

وهو ينادى نفسه ويصور عاطفته فى سن السبعين، قوى العاطفة مشبوبها بتطلع إلى أفواج المحبين :

« — ايها الشاعر : لقد اقبل المساء ، وابيض فودك . فهل انت فى خيالك وعزلتك تسمع إلى رسالة من عالم غير عالمنا ...

إنى لأرقب قلوب العاشقين من الشباب حين تلتقى ، وأعين المحبين حين تتبادل

النظر ، وتتطلع إلى الموسيقى تعبر عن مشاعرهم وتخرجهم عن صمت رهيب .

وهو يؤمن بوحى المرأة :

« فى عالم الروحانيات يتلقى الرجل الوحى من المراة سواء أكان فى حالة وجدان تام أم وجدان غير تام . وذلك الوحى يفتح لنا منافذ الروح فتتدفق منها العواطف والمشاعر والمراه هى الموجه إلى روحه ، المستفزة لعواطفه الباعثة على نشاطه ، بل هى التى تولد فى نفسه كل شعور واحساس ، وإذا كان اثرها لايظهر فى اعماله دائما فلانها تعمل من وراء الستار حيث لا تقع عليها الأبصار .

والمرأة لا تكمل إلا بالحب والعواطف :

ويؤمن طاغور بالاتحاد مع الله .

« سافوه باسمك وأنا جالس وحيداً غارقا فى لجج من الأفكار .

« سافوه به من غير كلمات .

« سافوه به من غير انتباه لأننى كالطفل الذى يدعو أمه مائه مرة وهو فرح لأنه يستطيع أن يقول أماه .

« ايه يارب . اننى اسمع نداءك .

« رن فى مسمعى عبر الخضم المجهول ، وقد حمل رسول منك أمين .

« أن الموت يقرع بأبى . والليل معتكر الظلام ، والقلب ينتفض من الخوف .

« ولكنى سأحمل مصباحى لأنير الطريق وافتح له الباب على مصراعيه .

« انت الذى ابتغيه واطمح إليه : انت وحدك .

وقد ألف طاغور مدرسة وطنية فى الوقت الذى كانت فيه بريطانيا مسيطرة على جميع مرافق الحياة فى الهند ، واستطاع ان يغرس الروح الوطنية فى قلوب الأدباء والكتاب الهنود وقدعرف الغرب قدره وترجم أدبه واحرز جائزة نوبل ومات طاغور فى ٧ اغسطس ١٩٤١ .

• اللهم هبنى إيمانا قويا املأ به قلبى واهدى به غيرى :

تولستوى

« اننى لا أعيش إذا فقدت العقيدة فى وجود الله .

« ولولا أننى كنت أتعلق بأمل غامض فى وجود الله لقتلت نفسى منذ زمن بعيد .

« أننى أحيا بل وأحيا حقيقة حينما أحس به وابحث عنه فقط .

وصاح فى داخلى صوت يقول : عن أى شىء تبحث بعد هذا . هذا هو . أنه ذلك الذى لا يستطيع المرأ بدونه أن يعيش . أن معرفة الله والحياة شىء واحـد ، أو قل : الله هو الحياة .

« عش باحثا عن الله وإذا فلن تعيش بدون الله » وقد أضاء كل ما فى نفسى ، وكل ما حولى أكثر من أى وقت سبق ، ولم يبارحنى الضوء بعد ذلك .

ونجوت من الانتحار .

« وعدت إلى الحالة التى كنت عليها فى صباى الباكر ، وفى شبابى عدت إلى العقيدة فى تلك الارادة التى أوجدتنى والتى تتطلب منى شيئا ما .

عدت إلى الاعتقاد فى أن الهدف الرئيسى الوحيد لحياتى هو «إصلاح نفسى» .

أن ماحدث لى شبيه بما يأتى : لكأنى وضعت فى زورق . ودفع بى إلى ساحل مجهول . ثم أطلعت على اتجاه الساحل المقابل . وبين يدى مجاديف لم أمرن على إستعمالها . ذلك الساحل هو الله . وتلك الوجهة هى التقاليد ، والمجاديف هى الحرية التى أعطيت لى لكى أسير نحو الساحل وأتحد مع الله . وهكذا تجددت عندى قوة الحياة وبدأت أحيا من جديد ... »

هذه قصة الأبيقورى الذى انقلب إلى زاهد . والأديب الذى تحول إلى مصلح، ورجل الفن الذى انتقل إلى منصب الداعية . لقد كتب إلية ترجنيف يقول « عد إلى الأدب فهو موهبتك الحقة . اسمع توسل رجل يموت » ولكن تولستوى لم يسمع ، فقد كانت الأزمة التى برزت إليه من ظلام النفس ، تضطرم بالكآبه والتبرم والانزعاج ، وبلغ به اليأس والضجر ، أن أخفى عن نفسه بندقية الصيد خشية أن يصوبها إلى صدره فى ساعة من ساعات القنوط . لم يعد يجد للحياة طعما . «كان يخيل إلى أننى بين أمرين : أما أن أجد لغزا للحياة أو انتحر » .

وتكشف له من ظلمات النفس ضياء باهر . وجاءه النداء من أعماق قلبه : « عش باحثا عن الله وإذن فلن تعيش بدون الله » .

ولم يلبث أن تحول عن طبيعته وأهدافه . وبدأ جريئا غاية الجرأة ، فاتهم الأغنياء بأنهم لصوص ، واتهم ذوى المتعة بأنهم أشقياء لأن خطاياهم تعذب أجسامهم، واتهم العلماء بأنهم مهرجون لأن العالم ليس فى حاجة إلى علومهم . واتهم الفنانين بأنهم مفسدون لأن فنهم قائم على الضرر . وقال للحكام أنهم طغاة لأنهم يسلبون الحريات . لقد انفجرت هذه المحنة فجأة فى حياة الفنان الفيلسوف وهو فى سن الخمسين ، فهجر الأدب الخالص إلى الفلسفة والدين والروحية الخالصة ، وتحول من المعانى

القريبة الملموسة إلى المعانى البعيدة الغامضة .

أما كيف تحول « تولستوى » وهو القوى البنية ، الثرى الذكى ، الذى كان يعيش حياة رخية ، وله ضيعة زاهرة ومال وفير ، ومعه زوجه وبنوه ! هذا هو الأمر الخطير الذى غزا القلب فدفعه عن الأدب إلى التصوف ، وحوله من دنياه المترفه وحياته الأبيقورية ، إلى حياة جافة خشنة ، بين الفلاحين فى الحقول ، حيث ترك أفلاطون وشوبنهور إلى الإنجيل ...

لقد بدأت هذه الأزمة عند تولستوى على صورة سؤال معقد « لماذا أعيش ؟ ما السبب فى وجودى . ما الغرض من الحياة ، ما معنى هذه التفرقة بين الخير والشر التى أحس بها فى دخيله نفسى .

وتوارد الخاطر فى ذهنه ، وأرق عليه نومه ، وأزعج يقظته ، حتى عاد كأنما هناك شبح مخيف يطارده . وضاقت الدنيا فى وجهه ، وفترت لذة الحياة فى نفسه، ولم يعد يهتز — وهو الشاعر الفنان — لجمال الحياة ولا لذة الدنيا ، ومضى احساسه ينفصل به حتى رأى أولاده وزوجه غرباء عنه . وكتب فى مذكرته يقول:

« ماذا دهانى ! ما هذه الكآبة التى عرتنى بغير سبب ؟ ما هذا التبرم وما هذا الانزعاج ؟ انى لم أعد أجد فى الحياة متعة أو أشعر فيها بما يهز منى الحس والعاطفة . لقد باتت زوجى غريبة عنى ، وتخلى عنى أبنائى غير آبهين ، وأمسى العمل إلى نفسى بغيضا ممجوجا » .

وسرعان ما تحول تولستوى خلقا جديدا . هذه الانتقاضه الروحية دفعته إلى حياة أخرى : احتقر المجد والشهرة الكاذبة . وبدأ ينظر إليها على أنها من الخدع والأكاذيب .

« فكرت فى الفن والشعر . وسرعان ما أدركت أن ذلك كله خداع . واتضح لى أن الفن زينة الحياة ومما يغرى بها . بيد أن الحياة فقدت جاذبيتها عندى ، وإذن

فكيف أستطيع أن اجتنب الآخرين . لقد كنت فيما مضى لا أحيا حياتى الخاصة، وانما أحمل على أمواج حياة أخرى ولما كنت اعتقد أن للحياة معنى ، فان انعكاس الحياة فى الشعر والفن بكل ضروبه ، كان يدخل السرور إلى قلبى ، فكان يسرنى أن أنظر إلى الحياة فى مرآة حياتى الخاصة . أصبحت تلك الحياة بالنسبة إلى غير ضرورية . زائدة عن الحاجة » .

وتحول رجل الفكر إلى مصلح . ثم انتقل مرحلة أخرى حيث بلغ القمة فأصبح داعية اشتراكيا وكتب إليه صديقه « تورجنيف » يقول « عد إلى الأدب موهبتك الحقيقية . اسمع توسل رجل يموت » . ولكن تولستوى كان قد تحول فعلا ولم يعد من اليسير رده القهقرى . ومضى تولستوى يقول « اللهم هبنى إيمانا قويا أملا به قلبى وأهدى به غيرى » وكان فى فجر شبابه قد هجر الكنيسة والصوم والصلاة ، فبدأ يقارفها مرة أخرى ويقصد إلى المعابد والأديرة ، وأخذ يفسر الانجيل من جديد .

ولم يعجب هذا أسرته ، ولم يعجب الدولة ولا الكهان . فصادروا كتابيه « اعترافاتى » و « عقيدتى » فقد طالب بالعودة فيهما إلى المسيحية الأولى وألح على كلمة الانجيل يقف عندها ، ويدعو إليها . واتخذ نفس الأساليب التى مضى عليها من قبل لوثر وكلفن فاختلف مع الذين آمنوا بالدين على أنه نفس طقوس تقليدية وراثية . فأصبح فى نظر الدولة فوضويا . ثائراً بل مارقا .

وتحول « تولستوى » مرة أخرى فاتجه إلى الاشتراكية ودعا إلى المساواة الاجتماعية .

« ... قبل أن نمد أيدينا لمعونة الفقير ، ينبغى أن نرفع المعاول ونهوى بها على هذا الحائل القائم » .

* ° *

وبدأ الفارق ضخما بين تولستوى قبل محنتة هذه وبعدها .

كان فى شبابه منحرف العقيده الدينية ... « أن العقيدة الدينية التى اقنتها منذ الصغر اختفت عندى كما اختفت غند غيرى ، إذ بدأت فى سن الخامسه عشرة ، اقرأ كتب الفلسفة » . ويرسم تولستوى حياته الأولى فى هـذه الصورة :

« لست أستطيع أن أعود بذاكرتى إلى تلك السنوات دون أن أحس بالفزع والمقت والألم النفسى الشديد . فلقد قتلت الرجال فى الحروب ، وتحديت الكثيرين إلى المبارزة كى أقضى على حياتهم . وقامرت وخسرت . واستغللت ود الفلاحين . وحكمت عليهم بمختلف العقوبات . وعشت عيشة إباحية وخدعت الناس، واقترفت كل الآثام : الكذب والسرقة والزنا بكل ضروبه وشرب الخمر . واستخدام العنف أو القتل » .

أين هذا من ذلك الإيمان الجديد . حين تحول إلى منفذ لفكرتة متنازل عن حب الصيد ، حيثلم يأكل اللحم اشفاقا على الحيوان . ولم يعد ينتقل فى قطار أو سيارة ، وأخذ يحول كل ما يدره عليه قلمه من ربح إلى جمعيات الاحسان .

كما أخذ يفلح أرضه بيده ، وارتدى الثياب الخشنة ، وأخذ ينذر بخطر الهوه بين الطابقات ويهاجم الملكية .

وتحول فى الأدب نفس التحول : فبعد ان كان الفنان المتجرد لفكرته، بدأيرى الأدب شيئا آخر .

يقول فى مذكراته عن حياته الأولى « كانت تقوم أحلامى على مشاعر أهمها حى لتلك المرأة الخيالية التى كنت أحلم بها على وتيرة واحدة ، وانى كنت أتوقع أن ألقاها فى أى لحظة ، فى أى مكان ، وثانيها : محبتى أن أغدو محبوبا فقد رغبت

فى أن يعرفنى كافة الناس وأن يحبونى ، ورغبت أن أخرج باسمى فأجد من الناس جميعا ما يدل على اهتمامهم بما أخرج به . وأراهم يحيطون بى فيسمعونى شكرهم أياى على أمر ما . وثالثها : أملى فى حظ عظيم غير عادى . وقد بلغ من تسلط هذا الأمل علىّ ، أن أشرف بى على الجنون . ورابع مشاعرى : وهو أهمها ؛ كان إحساس باشمئزازى من نفسى واستشعارى الندم ، ولـكنه كان ممتزجا بالأمل فى السعادة ولذلك لم يخالطه الحزن … » .

وقال « … كنت أكتب مدفوعا بالغرور والطمع والـكبر وفعلت فى كتاباتى ما فعلت فى حياتى ، فلـكى أظفر بالشهرة والمال — ومن أجلها كنت أكتب — كان لزاما على ان أخفى الخير وأظهر الشر . وهذا ما فعلت » .

ثم انحى باللائمة والتقريع على زملائه وأدباء عصره حيث قال « معتقدات هذه الفئة — أقصد زملائى — فى الحياة كانوا يعتقدون أن الحياة فى جملتها تتطور . وأننا نحن رجال الفـكر نلعب أكبر دور فى هذا التطور . وأن الفنانين والشعراء من بين رجال الفـكر هم أصحاب النفوذ الأكبر . مهمتنا فى الحياة أن يعرف الناس، فان سأل سائل ماذا علم وماذا استطيع أن أعلم ، أجابوه : أن هذا بناء على نظريتهم أمر ليس من الضرورى أن يعرف ، فالفنان والشاعر يعـلّم غيره دون أن يشعر بذلك » .

وهكذا كره تولستوى هذه الحياة وهجاها ، وفقد روح الطموح التى كانت تملأ نفسه . ولم يعد للمـكان الذى ينتظر أن يصل إليه أى خطر فى نفسه « فـكرت فى الشهرة التى تجلبها لى مؤلفاتى . وحدثت نفسى قائلا : « حسنا ؛ أنك ستصبح أبعد صيتا من جرجول أو بوشـكين او شكسبير أو موليير . أو أرفع ذكراً من كتاب العالم طراً ، ولـكن أى طائل لك من وراء ذلك ! » .

وهكذا أنكر تولستوى ماضية وتحول عن كل مظاهره وملابساته ، ولم تلبث علاقاته فى الأسرة أن تأثرت بهذا التطور . فتحول عن زوجته ، وزهد فى علاقته بها . لقد أحب تولستوى « سونيا » — وهو اسمها — وعندما التقى بها للمرة الأولى أعجب بخفة روحها ورآها تقبل على القراءة وتملأ البيت بهجة وشبابا وضحكا وصياحا .

كان إذ ذاك فى الأربعين وكانت فى السادسة عشرة . وتزوجا وعاشا سعيدين؛ ومضى يكتب ويؤلف ، ومضت ترتب القصر وتنظمه وتفرض سلطانها على ضياعه وأملاكه .

وكانت خير عون له على الانتاج . فاخرج للناس آيات عن روائع الفن . فظهر اسمه ولمع . ودوت شهرته فى كل مكان . وأن لم يمنع هذا من القول بأنه كان يشعر بالملل ويحس الرغبة إلى التغيير والتجديد .

وكانت سونيا تقدر مواهبه تقديرا كبيرا ولا تضيق بان تسهر الليالى وهى تعيد كتابة قصصه حتى تجعلها صالحة للنشر .

غير أن الأمر تحول بعد ذلك تحولا خطيراً . إذ مالبث القصصى أن تحول من الكتابة إلى القراءة . ومن الأدب إلى الفلسفة . واكب على دراسة الأناجيل ثم أخذ فى دراسة اللغة العبرية ليزداد تعمقا فى البحث .

وبلغ « تولستوى » سن الستين ، يزيده الشيب واللحية الكثيفة جهامة ووقاراً فى الوقت الذى كانت زوجته تتألق وتصل إلى أوج الكمال .

وانتقل تولستوى إلى دور المصلح الاجتماعى فأخذ ينشىء مذهبه الجديد ، ويحاول أول ما يحاول أن يطبقه على نفسه . وإذا هو فجأة وبدون مقدمات ، يطلب إلى زوجته أن ينزلا عن ضياعهما الواسعة ليعيشا عيشة البساطة .

ولـكن زوجته لم تقبل ، فمضى فى تنفيذ فـكرته فقسم أملاكه وضـياعه على أولاده وزوجه ووقف أولاده مع أمهم ضده ، ماعدا ابنته «ماشا» التى رفضت نصيبها فى الثروة وتطوعت للعمل لتـكسب رزقها .

وبينما كان اسمه « يدوى فى انحاء العالم كبطل » ، كانت حياته الخاصة تمر بأقسى مراحلها . فقد بدأت الحرب الخفية بينه وبين زوجه ، ولم تلبث أن ازدادت اضطراما وكان تلاميذه واتباعه خصوما لزوجه ، وقد أدى اتساع الخلاف بينهما ، إلى فتور العاطفة بينهما ، وقد ضايقه أن رآها تسيطر على كل شىء فى الوقت الذى كان يدعو الأثرياء إلى النزول عن أموالهم بمحض ارادتهم .

ثم لم تلبث علاقتهما أن مرت بأقسى فترات الحرج : كان تولستوى قد بلغ الثمانين ، وقد أصابه شىء من خيبة الأمل والفشل فى تطبيق آرائه ، عندما رأى نفسه عاجزا عن تطبيقها على نفسه . ورأى زوجته تقف فى وجهه وتقبض بيد من حديد على كل شىء !

وصمم على الفرار . ثم هرب فعلا .

ولـكن زوجته لم تدعه ، فلحقت به ، وكان الرجل الـكهل قد أضناه السفر فأصابته الحمى ، وظل أسيرها أياما وهو لا يسمح لزوجته أن تراه ، حتى إذا أصبح فى دور النزع الأخير سمح لها . فدخلت عليه وهى تبكى . وقبلت يده . وهى تقول : اغفر لى فقد اخطأت .

ولـكن تولستوى كان قد أسلم الروح .

* * *

وقد ولد تولستوى فى ٢٨ أغسطس ١٨٢٨ والتحق بجامعة قازان عام ١٨٤٤ ثم غادرها إلى موسكو ، وسافر إلى القوقاز حيث التحق بالخدمة العسكرية وألف كتابه الطفولة والشباب عام ١٨٥٧ ثم رحل إلى فرنسا وسويسرا .

وبدأ اتجاهه الأشتراكى عام ١٨٩١ حين تالبت عليه الكنيسة وحرمته من حقوقه الدينية وفر فى ٢٨ اكتوبر ١٩١٠ ثم توفى فى ٧ نوفمبر من ذلك العام .

ومن أبرز مؤلفاته الحرب والسلم وقصة أنا كارنينا . وكتاب الاعترافات .

• لو أنني أصبحت رجلا أمنيا لأصبحت كذلك رجلا فقيراً . ويومئذ لا يوقرني أحد أما إذا كنت جسوراً طماعا ثم نجحت فإنهم جميعاً يوقرونني ويعجبون بي .

برنارد شو

يكشف « برناردشو » عن نفسيته فى تصرف واحد : ذلك أنه حين منح جائزة نوبل وكان اسمه قد طبق الآفاق ، وبلغ حداً من الثراء لا بأس به . رد الجائزة وقدرها سبعة آلاف جنيه وقال « أن المال كحزام النجاة . ألقى به إلى السباح فى وقت كان قد وصل إلى الشاطىء سالما » .

ذلك هو الكاتب الذى حيرت غرابة اطواره وطرافة تصرفاته الناس جميعا حتى قالوا أن هذه التصرفات لم تكن إلا مجرد قناع وقائى يخفى وراءه خجلا موروثا . وهو يقول فى هذا : أن محبى المزاح والمجون فى قرارة أنفسهم على جانب كبير من الرزانة .

أن « شو » هو الصورة المعارضة للشاعر الاستعمارى « كبلنج » ولقد كان شو يمقت كبلنج أشد المقت : ذلك الشاعر الذى حاول أن يجعل معانى الاستعمار البغيضة شعرا يتغنى به الناس . فجاء شو يهزأ بالقوة والتسلط والظلم والمطامع .

وقد عاش فى ختام القرن التاسع عشر وشهد صدراً من القرن العشرين فمكنته حياته الطويلة من التهام الكثير من الآثار الفنية والفكرية ، كما أتاحت له فرصة التأمل الواسع الطليق . وقد عرف بحب المغامرة والاستطلاع حتى أنه تسلق ذات مرة أحد أسوار البساتين العالية وأخذ يجمع ثمار التفاح حتى جمع ما يقرب من الأربعين ثم قفز السور ، وفر هاربا حتى إذا مارأى مكانا عاليا تسلقه بخفة ورشاقة وراح يلتهم التفاح واحدة بعد الأخرى .

وقد أحب منذ شبابه الموسيقى والسمفونيات . كما شغف بالمسرح والتمثيل ؛ يقول : « لقد نشأت فى مسكن فيه ثلاثة يتقاسمونه . موسيقى عبقرى كان يدرس لامى الغناء ، وأبى الذى تزوج فى سن الأربعين وهو لا يملك إلا ستون جنيها سنويا من أمى على أمل أن ترث من عمها الغنى شيئا . ولكن عمها غضب لزواجها الذى كان يود أن يكون ممن لا يقل رتبة عن إيرل أو دوق وقرر حرمانى من الميراث» .

وقد سار « شو » على نهج الزهد والتقشف والتسامى بالشهوات الجسدية ، ففى حياته الطويلة استطاع أن يكبح جماح غرائزه ، وكل مافعله أنه قام بمغامرة غراميه على الورق مع « ايلين ترى » وكان يقول إن حبى المثالى هو الحب عن طريق البريد .

ويمثل برناردشو ؛ ذلك الصنف من العباقره الذين كانوا فى فجر حياتهم مثال الكسل والخمول والفشل فى الدراسة والعمل ، كما ذاق ألوان البؤس والشقاء فى حياته الأولى وظل طوال حياته مضرب المثل فى السخرية والتهكم .

وقد مكنه امتداد حياته من النجاح والتبريز ، ولومات فى سن باكره كما مات بيرون وشلى وغيرهم لما استطاع أن يحصل على هذه المكانة الضخمة . ولكنه عاش أربعا وتسعين عاما كتب خلالها خمسين مسرحية ورأى أضواء المجد تلفه ، والشهرة تطوقه والثراء العريض يغمر حياته .

ويقول « شـو » أننى أعزو نجاحى فى الحياة وشهرتى إلى أننى أكثر ثقافة وأحسن تربية من خريجى معاهد الأشراف وكبريات الجامعات » وقد بدأ حياته الثقافية بالإلمام بالموسيقى الانجليزية والألمانية والايطالية ثم جعل من غرفة القراءة فى المتحف البريطانى ملجأ يأوى إليه كل يوم ، فعل ذلك كثيرا من السنين، وتعود الـكتابة فى دور المتاحف والمقاهى التى يكثر فيها الضجيج والحركة . وكتب معظم مؤلفاته فى محطات السكك الحديدية وعربات النقل .

* * *

وتعد سخرية برناردشو كشفا صحيحا لحقائق الأمور التى أخفاها كثير من المولفين أما هو فـكان صريحا جريئا . ولذلك فقد هاجم الاستعمار والانجليز وكشف عن خفايا شخصيات طالما عرفت بالعظمة . وكتب عن دنشواى ومراكش

قال عن عصبة الأمم : فى جو جنيف الهادىء : الوطنية تموت والوطنى هناك جاسوس لا يمكن قتله .

وقال عن نابليون : ليس من العدل أن يعتبر نابليون جزاراً بالجملة فأى جندى يجيد ألرماية فى جيشه قتل من الأعداء أكثر مما قتل نابليون .

وقال : انى لا غفر لالفريد نوبل اختراعه الديناميت . ولـكن أى عدو للانسانية يمكنه أن يخترع جائزة نوبل .

ويقول : إذا استطعت أن تبعث جان دارك إلى الحياة فانهم سيحرقونها بعد سته أشهر أخرى على الأكثر على الرغم من تقديسهم الحالى لها .

ويقول : أن الحيوان البشرى مزيج غريب من الشهوة والشفقة : شهوة عندما يكون قادراً على الإيذاء . وشفقة عندما يكون عاجزا عن المساعدة . فان الله يرسل

إلينا أنبياءه وفى ساعات غضبه نفتك بهم وفى ساعات الندم نقدس دماءهم لا أشخاصهم .

وقد عاش برناردشو لا يأكل اللحم ولا يشرب الخمر ، ويحب السلام والتقشف. وينفر من البذخ والبهرجه .

وكان شو قد وصل إلى لندن فى سن العشرين وبقى بها إلى سن الأربعين يعيش حياة جافة حتى قيل أنه كان يعيش على ست بنسات فى اليوم ، وقد اتصل خلال ذلك بزميله هـ . ج ويلز وجمعتهما الجمعية الفابية (١٨٨٥) ثم تطورت الصداقة إلى معارك حامية حول وجوه الاصلاح والتجديد .

ويقول : أننى أعزو مقدرتى الكتابية التى بها أعبر عن أرائى بغير أن أفكر فى الأسلوب الذى اكتب به إلى ما تعمقت فيه من صغرى من مطالعة التوراة والسائح المسيحى وكتب كاسيل المصورة عن روايات شكسبير .

وقد بلغ به الأمر أن أصبح بعد ذلك يتقاضى أكبر أجر ناله مؤلف ، إذ بلغ أجره عن الكلمة الواحدة فى المقالة جنيها وترك ثروة تقدر بنصف مليون جنيه .

ويقول أننى ككاتب روائى اتخذ المتعة فى فنى وسيلة لغاية ، وهى أن احمل الناس على قراءة رواياتى وبذلك أمكنهم من العيش وفقا لما فيها من المثل العليا .

وأننى أحسن وضع الروايات التمثيليه أكثر من أى شىء آخر ، ومع ذلك فانى أقضى جزءا من وقتى فى رياضة بدنية تساعدنى على الاحتفاظ بصحتى . وإذا ماضحيت كل وقتى فى وضع الروايات ساءت صحتى وانحط انتاجى الأدبى .

ويصور بيئته فيقول : انا من ذرية تلك الطبقة الاجتماعية التى كانت تتظاهر بالوجاهة ولا تقوى على ما تتطلبه مظاهرها من النفقات . وقد كنت يوما ما احس

بهذا المزيج من الكبرياء الكاذبة ومرارة الأفلاس . ولم ينقذنى منه سوى الهبة الفنية التى اسبغتها على المصادفة فدرت على المال الوفير والقت بى بين احضان الأرستقراطية المصطنعة .

وهو يصور حياته الذاتية ويدفع بها التسامى فيقول :

ليس فى راسى شيء مما يسمونه الخطيئة الكبرى ؛ فلم اربط أبدا بين الصلة الجنسية وفكرة الاثم والخطيئة . بل كنت اربطها دائما بالنشوة . وانا لا احجم عن هذه الصلة ، ولا ألوم نفسى عليها .

... لقد احببت الصلة الجنسية لأنها تستطيع ان تمنحنى بعضا من الاحساس السامى ، مهما يكن هذا الاحساس مؤقتا ، إلا انه يعطينى فكرة عما يجب ان تكون عليه الحياة العادية للبشر من نشوة متصلة ، قد يمكن تحقيقها عن طريق السمو الذهنى وهو يصور القلق المقدس الذى يغمر نفسه بقوله :

« أن الذين ولدوا متعبين يشوقهم أن يستقروا . ولكن الاستقرار عند من ولدوا بنفوس قوية نضرة نوع من الانتحار ..

* * *

ويعزو مؤرخو برناردشو طبيعته ذات الغرابة والشدوذ إلى طبيعة تركيبه الطويل العملاق ، وقد وصف نفسه بانه تلميذ صمويل بطلر كما هاجم الانجليز فى عقر دارهم وحارب الاستعمار ، وله مواقف خالده مع مصر . وهاجم الامريكان وقال عنهم أنه أمة قروبون وأنه فى المائه تسعه وتسعون أغبياء بله .

وقد طوف بالعالم فزار روسيا والهند وينوزلندا وأمريكا وسيام وجنوب افريقيا وقد عاش نباتيا طيلة حياته .

وعند ماتزوج قال أنه تزوجها تحقيقا لفرض كنت من قبل أحسبه بعيد المنال وهو أن أجد شخصا أفكر فيه اكثر من تفكيرى فى نفسى .

وقد هاجم شكسبير هجوما حادًا . وقال إن شكسبير هو المسئول الوحيد عن أنهيار الدراما ثلثمائة سنة بعد موته حتى جاء وقتى . إن مسرحياته كانت مكروهة. وقاتله ومشوهه حتى بعث فيها « هارلى جرانفيل باركر » الحياة وأخرجها إلى الدنيا على المسرح .. أن شكسبير أطول منى بكثير ولكننى أقف على كتفيه فعلى كتف من وقف هو »

ويقول « لقد كان شكسبير مخطئا فى رواياته يحشر الاراء البيولوجيه فى بعض حوادثها لجعل الأنسانية مسيرة لا مخيرة « ويقول : لم يكن لشكسبير عقيده ما أو برنامج معين فكل تصميماته بسيطة غير أن عبقريته عملت على إجادتها .

وقد وصفه أهله واصدقاء أسرته بأنه « أفّاق » وبلغ من سخريته أن قال للمشعوذ فى سرك الأولمبيا « كل مافى الأمر أن مهرجا قديما يحى زميلا له » أما المثل الأعلى للشخصية الدينية عنده فهو « النبى » محمد فهو يتمثل فى النبى العربى تلك الحماسة الدينية ، وذلك الجهاد فى سبيل التحرر من السلطة . وهو يرى أن خير مافى حياة النبى أنه لم يدع سلطة دينيه سخرها فى مأرب دنيوى . ولم يحاول أن يسيطر على قلوب الناس المؤمنين ولا أن يحول بين المؤمن وربه ولم يفرض على المسلمين أن يتخذوه وسيله لله تعالى »

وكان يرى فى حياة النبى محمد شبها بالحياة المثاليه التى أراد هوأن يعيشها وبلغ به الأعجاب أنه حاول عام ١٩١٠ أن يكتب مسرحية عن محمد لو أن صادفته بعض العقبات وماقاله فى مسرحية جان دارك مما يتصل بذلك « أن الجندى الصليبى يعود

من المشرق وهو نصف شرقى مسلم ، أو أتباع محمد يحترمون المسيح احتراما ظاهرا شديدا» .

ومن أقواله الخالده : إن الاغنياء يخافون الفقر أكثر من خوف الفقراء إياه ، لأن الفقراء قد تعودوه وألفوه .

وقوله : إن القوه التى تعين الانسان على ان يقف وحده جديرة بأن تنال حتى ولو كان ثمنها فترات طويلة من الوحدة المريرة »

وقد ولد برناردشو فى دبلن فى ٢٦ يوليه ١٨٥٦ وتوفى فى نوفمبر سنة ١٩٥٠ وبذلك يكون قد عاش نصف كل من القرنين وشهد أحداث الدنيا خلال ما يقرب من قرن كامل .

● إننا نقترب من الحقيقة كلما أشرفنا على مفارقة الحياة إذ ما الذى نجاهد فى سبيله نحن هى الحقيقة . إننا نجاهد لكى نحرر أنفسنا من الجسد ومن كل الشرور التى تنشأ عن حياة الجسد . ولما كان الأمر كذلك فلماذا لا نفرح حينما يأتى إلينا الموت . إن الرجل الحكيم يبحث عن الموت طوال حياته . ولذا فالموت لا يفزعه .

سقراط

« .. أنتم أصدقائى . وأحب أن أوقفكم على معنى تلك الحادثة التى وقعت لى . إيه يا قضاتى لأنه يجدر بى أن أدعوكم هكذا من صميم قلبى . أحب أن أخبركم عن حالة من أعجب ما يكون . إلى الآن ظل الوحى الذى يهتف من أعماق ذاتى على عادته فى معارضتى ، كلما أوشكت على ارتكاب خطأ أو مثل ذلك فى أى أمر من الأمور .

« والآن كما ترون أحاق بى آخر شر ، بل أسوأ الشرور ، إلا أن الوحى لم يبدأ أية علامة اعتراض على أى شىء قلته أو فعلته يتصل بذلك ، وسأخبركم أى تغير لذلك عندى !

« إنى أرى صمت الهاتف كبرهان قاطع على أن ما حدث لى خير كل الخير . وعلى أن أولئك الذين يظنون أن الموت شر ، ليسوا على صواب لأن العلامة المعتادة كانت لابد ، وأن تعارضنى لو أنى كنت مقدما على شر لا على خير .

غير ولو فكرنا من جهة أخرى ، لرأينا أنه ما من سبب جدى لأن نأمل أن اموت لأن الأمر لا يعدو حالتين : إما أن الموت حالة عدم ، وإما أن الروح كما يقولون تتغير وتهجر هذا العالم إلى عالم آخر ، والآن إذا فرضتم أنه لا وعى هناك . بل نوم هادىء كنوم الهانىء الذى لا يقلق مضجعه شىء من الأحلام .

« فالموت كسب ما فى ذلك شك لأنه إذا كان لأى امرىء مهما كان أن يختار الليلة التى نام فيها نوما هانئا لم يعكر صفوه شىء من الأحلام ، وكان له أن يقارن بينها وبين غيرها من الليالى والأيام . وأن يخبرنا كم من الليالى والأيام التى صادفها فى حياته كانت أمتع من هذه الليلة لو قورنت بغيرها وعليه فإذا كان الموت على شاكلة هذه الليلة فإنى أقول أن موت المرء كسب وغنم له فما الأبدية حينئذ إلا ليلة واحدة .

« وإذا كان الموت رحلة إلى مكان آخر — حيث يوجد كل الموتى — فاى خير يمكن أن يفوق ذلك . وإذا كان الراحل حقيقة يصل إلى الدار الآخرة وينجو من أساتذة العدالة فى دنيانا هذه ليجد القضاة العدول الذين يقال أنهم يحكمون هناك ويتولون الحساب فانها لرحلة حقيقة بأن يقوم بها المرء .

وفوق كل شىء فإنى أستطيع أن أواصل البحث عن المعرفة الصحيحة والمزيفة كما كنت أفعل فى هذه الدنيا ، وسأعرف من الحكيم ومن يدعى الحكمة وهو غير حكيم .

« وما الذى لا يجود به المرء ليمكنه من أن يختبر القائد الذى هاجم طرواد أو ادبسيوس أو سينوس وغيرهم ممن لا حصر لهم رجالا ونساء ، وأى سرور لا يوصف فى محادثتهم وتوجيه الأسئلة إليهم ، ففى أى دنيا غير هذه الدنيا لا يرسلون

رجلا إلى الموت لأنه يوجه أسئلة ، وما فى ذلك من شك ، لأنه بجانب كونهم أسعد فى الدنيا الأخرى منهم فى هذه الدنيا فهم لا يموتون هناك إذ لهم الخلود — إذا صح ما يقولون .

« ومن ثم قابلوا الموت برحابة صدر وطيب نفس ، وكونوا على يقين من أن الشر لن يحيق بالرجل الخير لا فى هذه الحياة ، ولا بعد الوفاة فلن تنساه الآلهة ولن تهمل حياته ولو كان اقتراب نهايتى صدفة محضة ، بل انى أرى فى جلاء أن فى موتى وتحررى وخلاصى الخير كل الخير ولذا سكت الوحى .

ولهذا فإنى لست خائفا على من اتهمونى ومن أدانونى فما أوقعوا بى إلا خيراً ولو أنهم لم يقصدوا لى خيرا ، وهو ما ألومهم عليه فى رقة ولطف على أنى لا زلت ألتمس معروفا فعندما يكبر أولادى وتلاميذى فارجوكم يا أصدقائى أن تعاقبوهم .

« أوصيكم أن تزعجوهم كما أزعجتكم . وإذا بدا منهم اهتمام بالثراء أو بأى شىء آخر اكثر من اهتمامهم بالفضيلة او ادّعوا ان لهم قيمة ، ولم يكن لهم فى الحق اية قيمة فأزجروهم كما زجرتكم على عدم اهتمامهم بما كان يجب عليهم ان يهتموا به وعلى ظنهم بأن لهم قيمة بينما هم فى الواقع لا قيمة لهم ، فلئن فعلتم لا نصفتمونى وانصفتم اولادى .

« والآن وقد دنت ساعة رحيلى ونحن على مفترق الطرق انا إلى الموت وأنتم إلى الحياة ، اما من منا اهدى سبيلا ، واحسن نصيبا ، اما ايهما افضل فهذا شىء لا يعلمه إلا الله وحده .. »

* * *

هذه هى الكلمات الأخيرة لسقراط . هذه فلسفة الموت الذى هو الخلود .

إنها قصة الحق الذى ضحى فى سبيله بحياته . فعاشت قصته على الزمن لهبا صاعدا لا ينطفىء ونوراً مشرفا لا يفتر .

قال شلى : سقى سقراط السم لأنه اجترأ على أن يكافح الخرافات التى كان مواطنوه يلقنونها وينشأون عليها ثم ما عتمت أثينا بعد موته بقليل ان تبين لها ما فى حكمها عليه من الظلم فانتصفت له متهمة « ملتياس » ورفعت سقراط إلى قريب من مراتب الأرباب لقد وهب حياته ليعلم من حوله . كانت طريقته أن يوجه إليهم الأسئلة ويجعلهم يفكرون فى معنى قولهم : هذا خير وهذا شر . وهذا عدل وهذا حيف .

***

دعا قومه إلى البحث عن الحقيقة ، وكانت حكمته العالية « اعرف نفسك بنفسك » ومن قوله : ان امى كانت قابلة ، وانا احاول ان اتبع منهجها . إنى طبيب مولد للعقول ، اساعد الآخرين على توليد افكارهم . »

قد صدر اسلوبه فى دعوته فقال : إنى اتبع سبيل الحق كالكلب يقفوا أثر المجرمين . »

هذا الأسلوب الذى يتمثل فى الأسئلة : ما هى التقوى ، ما هى الحقيقة ، ما هى الديمقراطية . . وكان يقول « هناك شىء واحد اعرفه هو اننى لا اعرف شيئا » .

والفضيلة والسعادة عنده متلازمتان . وهو يرى ان الانسان لا يرقى اوج السعادة إلا بالفضيلة . ولا قوام للسعادة بغير الفضيلة .

وقالوا : إن سقراط ازاح مرآة « الاعجاب بالنفس » من امام اعين اهل اثينا ووضع بدلا منها مرآة « الحقيقة » .

كان سقراط جميل النفس والعقل وان لم يكن جميل الوجه ، وكان يسير عارى

القدمين على الثلج فى اوج الشتاء . ولم يغير رداءه الرخيص الوحيد لا صيفا ولا شتاء ، وكانت روحه غاية فى الصفاء والطهر . وكان قوى الجسم عملاقا .

وقد اشتهرت زوجه بالسلاطه والشراسة ، وقد نغصت عيشه وامضت حياته ، وقد عيروه بضعفه امامها وسألوه لم لا يطلقها . فقال : كيف اطلقها وهى تعلمنى الصبر . .

وكان يقول لتلميذه : تزوج فإن ظفرت بزوج فاضلة فأنت رجل سعيد وإلا صرت فيلسوفا وهذه نعمة لكل رجل .

* * *

وعاش « سقراط » بين سنتى ٤٦٩ قبل الميلاد و ٣٩٩ قبل الميلاد . ولم يخط فى حياته حرفا واحداً ولم يترك اثراً مكتوبا . وقد اعتمد المؤرخون فى معرفة آرائه على مانقله عنه تلميذاه « افلاطون وزينفون » كل منهما قد رسم صورة تختلف عن صورة الآخر ، ولكنهما فى مجموعهما يكملان بعضهما .

وقد عاش سقراط حتى سن الثلاثين قبل ان يبدأ رسالته فى هداية اهل اثينا إلى طريقة استعمال العقل والتمسك بالأخلاق ، والدعوة إلى الفضيلة والعدل والايمان وكان سقراط من القائلين بالوحدانية ويرسم فى مجموع ملامح حياته « صورة المعلم » ووصف بأنه «الرجل الذى جرؤ على السؤال» . وقد جذبت شخصيته الجبارة حوله عددا كبيراً من الأنصار والتلاميذ كما اثارت عداوة الحاكمين الظالمين والاقطاعيين ورجال الدين .

وقد تحدى سقراط الطاغية « كريتياس » الذى اتهم سقراط بالاشتراك مع « اينتوس » الذى حرض عليه بأنه يعبد آلهة غير آلهة الناس وانه يفسد الشباب ويحرضهم .

فبينما كان سقراط يتجول فى السوق ، وجد اتهاما معلقا موجها إليه مجمله انه متهم بارتكاب جريمة ، أولا : لأنه لا يعبد الآلهة التى تعبدها المدينة بل يدخل الهيات جديدة ، وثانيا لافساد الشباب : وأن الاعدام هو العقاب . وقبض على سقراط ووضع رهن المحاكمة . وكان فى مقدوره أن ينجو ، ذلك انه كان من حق المحكوم عليهم بالاعدام ان يختاروا النفى .

وحوكم سقراط عام ٣٩٩ ق . م وكان شيخا كبيرا جاوز السبعين وتولت محاكمته هيئة مكونة من خمسمائة عضو . ووجهو إليه القول بأنه يرتكب السوء ويعرض على آلهته إلها جديدا ويفسد الشبيبه .

ودافع سقراط عن نفسه فقال :

« إننى احيا فى هذا العالم مطيعا لله منقبا وباحثا فى حكم كل انسان ، سواء اكان مواطنا او غير مواطن ، طالما يبدو لى انه عاقل ، فان وجدته غير عاقل فاننى احتراما للالهة ودفاعا عنه ، اريه موطن خطئه ، وانا فى فقر مدقع بسبب إخلاصى لله ولن اشترى سلامتى بالسكون او بخيانة رسالتى .

« يارجال اثينا : إننى احبكم واحترمكم . ولكنى افضل طاعة الله على طاعتكم . وطالما كنت حيا قادراً فلن اعدل عن دراسة الفلسفة وتدريسها . لقد وهبنى الله للدولة ، والدولة مهر نبيل ضخم بطىء الحركة بسبب عظم جسمه ، فهو لذلك فى حاجة لما يعيد إليه الحياة ، وانا الذى خصصه الله لأداء تلك الخدمة . إننى اعتقد فى الآلهة اكثر مما يعتقده الذين يتهموننى .لذلك ادعو الله لى ولكم ان تحكموا فى قضيتى بما هو خير لى ولكم » .

واقتيد « سقراط » إلى السجن حيث ترك حراًيقابل تلاميذه ويتباحث معهم ، وقد حاولوا اغراءه بالهرب ومهدوه له ، ولكنه أبى . وقال « إن فى هربه اضرار بالدولة والهروب بغير رضاء الدولة .

« فواجب كل انسان ألا يترك الصف سواء كان فى الحرب أو فى المحاكمة ، بل عليه أن يعمل ما يأمره به وطنه ، أو يبذل رأى ذلك الوطن » .

ولما حدثه أفلاطون عن الهرب قال : اخبرونى عن مكان لا موت فيه ، فأذهب إليه » .

فلما جاء الجلاد سأله : كيف تتناول السم فقال : اشربه .

فلما قدمه إليه تناول القدح وانخرط حامله فى البكاء وسالت عبرات تلاميذه ، ولم يحتفظ بهدوئه سوى « سقراط » .

وتناول الكأس وشربها كأنه يشرب ماءاً عذبا ، فلم يتمالك أصدقاؤه من البكاء .

فالتفت إليهم وقال لهم : ما بالكم تبكون ونحن انما أخرجنا النساء من هذا المكان لكيلا نسمع بكاءا . فكونوا رجالا ، وتصرفوا تصرف الرجال .

ثم مازال يخط بيده على الأرض ، حتى أحس بالضعف فجلس ثم توسد وأخذت أطرافه بالبرد ثم جمدت عيناه وأسلم الروح .

- ان الرجل الممتاز يبحث عن كل شيء يريده فى نفسه . أما الحقير فانه يبحث عن كل مايريد عند الناس . أن الرجل الأفضل عسير على الناس أن يرضوه ، ولكن من السهل عليه أن يخدموه » .
- أن الجبابرة يستطيعون أن يهزموا الجيوش ولكنهم لايستطيعون أن يهزموا الشعوب »

كونفشيوس

هذا الفيلسوف الصينى عاش مغبونا مظلوما فى قومه حتى عُرف قدره بعد زمن طويل . كانت أمنيته « طوبى » لأمته ، وعاش إلى سن السبعين يتطلع إلى أمير أو حاكم يتخذه مشيراً له فيخلق المدينة الفاضلة فى سنوات أربع .

ولقد أتيح له أن يحقق هذا الحلم لفترة قصيرة ، ولكن الرجعية والمطامع والتآمر ، كلها حالت دون استمراره ، فخرج على وجهه هائماً ثلاثة عشر سنة حيث جاب مناطق الصين الشاسعة دون أن يتحقق أمله .

ولقد صور هدفه وحلل شخصيته فى مجموعه من الأقوال :

« إننى أحاول الوصول إلى الحقيقة . ولا شيء غير ذلك . مامن مرة مشيت فيها فى صحبه ثلاثة أشخاص إلا وجدت بينهم من يعلمنى شيئاً . إنى أختار شيئاً فاضلا وأفضل فعله .

« لقد بدأت وأنا فى الخامسة عشرة أهتم إهتماما شديداً بالدرس . وفى سن الثلاثين اتممت تكوين أخلاق . وفى سن الأربعين لم تبق فى نفسى حيره . وفى الخمسين عرفت إرادة السماء ، وفى الستين لم يعد يؤلم نفسى أى شىء أسمعه وفى السبعين كان فى استطاعتى أن أنتقل بافكارى من موضوع إلى موضوع دون اعتداء على ناموس الأخلاق .

« إننى شخص ينسى ان يأكل عند ما يكون مشغولا بأى أمر . وينسى كل أحزانه عند ما يكون سعيداً . ولا يهتم باقتراب الشيخوخة » .

« يستمتع الإنسان بالحياة عند ما يلقى رأسه فوق وسادة ويضع ذراعه مثبتة تحت رأسه بعد أكلة من الخضروات البسيطة وجرعة ماء . أما الاستمتاع بالثروة والسلطان دون أن يحصل عليهما الإنسان من الطريق الصحيح المستقيم . فذلك فى رأيى أشبه بالسحب الكثيرة التى تسير فى الهواء .

« كثيراً ما قضيت اليوم كله دون أن أذوق طعاما وكثيراً ما أمضيت الليل دون أن يطرف لى جفن ، وذلك عند ما أكون مشغولا بالتفكير فى أمر من الأمور .

« أحمل على أربعة أشياء وأبذل كل مافى وسعى لتجنبها تماماً : الاستبداد بالرأى ، والادعاء ، وضيق الأفق فى التفكير ، ومدح النفس .

« إن الأمور التى تسبب لى المتاعب أو الهم هى : خوفى من أهمل تحسين أخلاق وخوفى من أن أهمل دراستى . وخوفى من أنى لا اسير إلى الأمام عند مايلوح لى الطريق الصحيح . أو أفشل فى تقويم نفسى عند مايتضح لى خطئى .

« إن المرء يصبح حكيما إذا هو أكثر من الاستماع واتبع الصواب وإذا رأى أشياء كثيرة وظل يتذكرها .

« إن الرجل الذى يستحق أن يسمى عالماً ، هو الذى يتسم بالشرف فى أخلاقه الشخصية ويمكن الاعتماد عليه فى تنفيذ مهمته فيؤديها بنجاح مع احتفاظه بكرامته .

« إن تقدير الحقيقة فى صمت . والاستزادة المستمرة من العلم ، وتعليم الآخرين دون انقطاع . كلها أمور طبيعية بالنسبة لى .

« إن آمالى هى أن أرى المتقدمين فى السن يعيشون فى هدوء وسلام . وأن أرى جميع الأصدقاء يخلصون . وأن أرى جميع الشبان يحبون من أهم أكبر منهم سناً .

« أيقظ نفسك بقراءة الشعر . وعود نفسك القيام بالواجب حسب الأصول المرعية ، وأتمم تعلمك بدراسة الموسيقى .

« ليست هناك فائدة ترجى من النحت فى قطعة خشب متعطنة ، أو دهن جدار مقام من طين بقذارة الحيوانات .

« إن الرجل الأفضل عسير على الناس أن يرضوه ، ولكن من السهل عليهم أن يحترموه ، ذلك أنك إذا حاولت أن ترضيه بشىء لا يتفق والحق فانه لا يرضى ، ولكنه فى استخدام الناس يستطيع أن يميز بينهم ويوفق بين كفاءآتهم وحاجاته ، أما الرجل الحقير فمن السهل عليك أن ترضيه . ولكن من العسير جداً أن يخدم ، ذلك أنه قد يرضى بما ليس متفقاً والحق ، ولكنه فى استخدام الناس يطلب إليهم أن يكونوا كفؤاً لأى عمل يريد » .

« إن أعلى الطبقات هم الحكماء ، وأدناً طبقات الأغبياء هم الذين لا يتغيرون .

« إن كنتم لا تعرفون الحياة فكيف تريدون أن تعرفوا الموت .

* * *

تلك هى شخصية المعلم الأكبر للصين الذى علم تلاميذه أربعه أشياء هى قوام

شخصية الإنسان الأعلى : «التاريخ» كى يلهموا بالأمور العظيمة من أعمال الإنسان و « الشعر » كى يكونوا ذوى خيال و « الموسيق » كى يتطرق الإنسجام والرشافه ألى نفوسهم و « حسن الطباع » كى يكونوا سادة .

وكان كنفوشيوس يعتقد فى قوة القدرة ، وقال منذ اليوم الأول : أنه سيعلم الأخلاق ، وليست العلوم ، وكان مذهبه « الفضيلة للحياة » .

وقد التف الشباب حول الفيلسوف ، وطافوا معه البلاد ، باحثين عن حاكم يصغى إلى أراءه ، ولكن الحكام كانوا يحترمونه ويخشونه فى نفس الوقت . إذ كان يؤمن بأن الحاكم فى دولته يجب أن يكون مثل الآب فى عائلته ، ويتحتم عليه ألا تفوته صغيرة أو كبيرة حتى يلم بها أو يعرفها وكان يقول دائما :

« الحاكم كالريح إذا هب لابد أن تميل الرعية كما تميل الحشائش فى الاتجاه الذى يسيرها نحوه » .

وقد سنحت له هده الفرصة لاول مرة وهو فى الثانية والخمسين إذ تألق نجمه بعد أن ظل فترة طويلة مغموراً ، ووافق أمير دوله « لو » على أن يتخذه رئيس القضاة فى مدينة شونج تو ثم أصبح وزيراً للجريمة ، فاستطاع أن يحقق ما كان يدعو إليه من آراء ، واختفت الجرائم ، وبدأت المدينة تعيش حياة مثالية ونجح الفيلسوف فى عمله ، واستمع الأمير إلى رأيه ، غير أن الأمراء المجاورون أزعجهم تغلغل نفوذ كنفوشيوس ، وخافوا أن تمتد موجة حركة « المدينة الفاضلة » إليهم فلجأوا إلى حيلة بارعة هو أن بعث أحدهم إلى أمير « لو » ثمانون فتاة جميلة كلهن ماهرات فى الحديث والرقص والغناء والعزف على الآلات ، فانصرف الأمير إليهن ، ولم يعد يهتم بكونفوشيوس ولا بأرائه ولم يلبث أن أصم اذنيه عن دعوته

عندئذ غضب الفيلسوف المعلم ، وآثر أن يترك موطنه مستصحبا تلاميذه مسافراً من دولة إلى دولة ٠ كانت سنه إذ ذاك فى حدود الستين ، ولم يلبث أن تجول فى مناطق شانتونج وهونان وانهوى وداى خلال أربعة عشر سنة كاملة ،امتلأت بالـآسى والأحزان .

ثم عاد بعد أن بلغ السبعين إلى وطنه يائساً . بعد أن مات أحب تلميذيه إلى نفسه وكان أحدهما قد بلغ منصب قائد الجيش فى إحدى المقاطعات ، كما مات ابنه .

وقد ألف كتبه الستة فى خلال السنوات الخمسة الأخيرة من حياته وهى : التغييرات ، الأناشيد ، التاريخ ، الشعائر ، حوليات الربيع ، الخريف ، الموسيقى وعرفت هذه الـكتب الخمسة باسم « ووتشنج » أى الروائع الخمس .

ومات كونفوشيوس وهو فى الثالثة والسبعين عام ٤٧٩ ق . م دون أن يجد تقديراً من معاصريه ولم تجد تعاليمه من يعتنقها .

بل أن الإمبراطور « شبه هوانج لى » حرق كتب الفيلسوف وأرائه وتعاليمه عام ٣١٢ ق . م .

ثم لم يلبث المفكرون أن عادوا إلى آثاره . وأرادوا تدوين كتبه وأرائه بعد خمسين سنة من إحراقها فلم يجدوا هناك وسيلة غير جمعها مما كان يحفظة الناس .

وقدكان المعلم الأكبر يحب الموسيقى إلى حد لا يمكن تصوره حتى قيل أنه لـما سمع موسيقى « شياو » فى أقليم تشى لم يذق طعم اللحم ثلاثة شهور وكان يقول « لم أكن أتصور أن تـكون الموسيقى بهذا الجمال » .

ولم يكن كونفوشيوس يحب اللون الأزرق أو القرمزى .

وقد ولد عام عام ٥٥١ ق . م فى بلده «شبقو» ودفن بها بعد موته . وقداتهمه

خصومه فى حياته وبعد موته بالأنانية . ولكن تعاليمه وما خلّفه من اثار اثبتت عكس ذلك ، وكانت فى نظر المؤرخين تمثيلا صحيحاً لروح الصين ، كما حافظت تعاليمه على كيان القيم الصينية اكثر من ألفى سنة .

وقد ظل الصينيون ولا يزالون يؤرخون به فيقولون من كونفوشيوس حتى سن يات سن .

ومما يروى عن رأيه فى الحاكم الظالم ماقيــل من أنه مر وبعض تلاميذه بجبل (تاى) فى أحد اسفاره فسمع عويل امرأة تجلس على جانب ، فأرسل مستفسراً عن سبب عويلها فى تلك البقعة الموحشة ، فأجابت « لقد افترس نمر فى هذا المكان والد زوجى . وافترس زوجى ايضاً . والآن لقى إبنى المصير نفسه ! .

فسأل كونفوشيوس : ولماذا تسكنين إذن فى مثل هذا المكان اللعين ؟ .

قالت : لأنه لا يوجد حاكم ظالم هنا .

فالتفت إلى تلاميذه وقال : ايها العلماء تذكروا ذلك : الحاكم الظالم أشد قسوة من النمر المفترس .

● « لا تبكوا فوالله ما فعلت فعلا أخاف على نفسى منه . وكان لى فضل فكر صرفته إلى وجهه وددت بعد ذلك أنى كنت صرفته إلى غيرها وما علمت انى كذبت متعمدا قط وارجو أن يغفر الله لى التأول »

الخليل بن أحمد

« لقد حصرت الأنغام ومقاديرها وأنواعها ، فضممت كلا إلى نوعه ، ثم حصرت اوزان الشعر العربى بتوفيق الله ، فما لى لا افكر فى حصر الفاظ اللغة العربية ، بشكل علمى تام كامل لايغادر منها فيه لفظ » .

هذه هى الفكرة البارقة التى كانت تملأ نفسه والخواطر التى تدور فى اعماقه وهو فى طريقه من البصرة إلى خراسان ليعيش فى ظل صداقة حبيبه لنفسه ، فى شخص « الليث بن مظفر بن نصر بن سيار » ثم لم يلبث أن وضع مقومات هذا العمل الضخم ، ورسم خطوطه ، وترك امره إلى الليث الذى أتمه ،ذلك هو كتاب العين الذى يعد دائرة معارف ضخمة وضع مقدمتها وخطتها : الخليل بن احمد .

. . .

قال حمزه الاصبهانى « أن دولة الاسلام لم تخرج أبدع للعلوم التى لم يكن لها

عند العلماء العرب أصول من الخليل وليس على ذلك برهان أوضح من علم العروض الذى لا عن حكيم أخذه ، ولا على مثال تقدمه احتذاءه . وإنما اخترعه من ممر له بالصفارين من وقع مطرقة على طست ليس فيهما حجة ولا بيان يؤديان إلى غير حليتهما ، أو يفسران غير جوهرهما » .

أنهما ثلاثه أعمال ضخمة قام بها الخليل بن احمد عبقرى اللغة العربية دون منازع هى رسم حركات الحروف لأول مرة بعد أن كانت العرب تضع نقطا فوق الحروف وعلم العروض الذى حطم به نظرية القائلين بأن النظم العربى لاضابط له ويدخل فى هذا إكتشافه سر الموسيقى وأصلها . أما عمله الكبير فهو أنه أول من صنف معجما عربيا هو كتاب العين حصر فيه لكل ما يمكن أن يتركب من ألفاظ العرب ورتبه على حروف الهجاء .

• • •

أنه الخليل بن احمد عمرو بن تميم الفراهيدى ، أخرجته البصرة كما أخرجت عدداً كبيرا من أعلام الفكر الاسلامى ، درس الفقه واللغه على أبى أيوب السختيانى ورأى الفرزدق فى صباه ، كما تلقى على عاصم الأحول والعوام ابن حوشب .

وقد ذهب فى شبابه إلى بلاد الروم مجاهداً للدفاع عن ثغور الاسلام ، وقد أحب حلق العربية والنحو ، وأمضى ثلاث سنوات يجلس إليهم فيسمع منهم ولا يشترك فى الجدل والمناظرة ، وقد عاصر شيخ العربية عمرو بن العلاء وحضر مجلسه ، وكان قد مضى على عمرو أكثر من خمسين سنة يدرس اللغة ، وقد أغراه بعض أصحابه بأن يجادله وينتصر عليه فيتحدث عنه الناس ويرتفع اسمه ، ولكنه رفض ذلك وآثر أن يظل منه بمنزله التلميذ مهما بلغ به العلم وكان الخليل محبا للوحدة ، راغبا فى الصحراء . يخرج من المدينه إليها بحيث ينفرد بنفسه ويدير فى عقله أفكاراً ومعانى كانت ارهاصات لاكتشافه قواعد النحو وضوابطه .

ذلك أنه بدا يضع قواعد جديدة فيه لم يكتشفها أصحاب العربية . ولم يلبث أن انقطع عن الناس كلية ، يخرج فى الصباح إلى الصحراء فلا يعود إلا فى الغسق يسير على غير هدى ، وهو فى خلال ذلك يدون شيئا فى صحيفة معه .

ولم تلبث هذه التهويمات أن تكشفت عن شىء واضح ناصع وصفه فى قوله :

« أن أبا الأسود الدؤلى ضبط حركات الحروف من فتح وضم وسكون بوضع نقاط بأعلى الحروف أو أسفل منها أو عن يمينها أو شمالها . وقد اختلطت النقاط المميزة للحروف بالنقاط المميزة للكلمات .

وقد أردت أن أسهل الأمر على الناس ، بأن أوجد ما يضبط به الناس الكلمات دون الحاجة إلى تغيير الحبر ، ودون أن يضطربون من كثرة النقاط واستعمالها . •

والأمر الذى خطر فى بالى هو أن أرسم فوق كل حرف محرك صورة حرف المد الذى يقابل حركته ، فان كانت حركة الفتح وضعنا ألفا صغيرة . وإن كانت الضم وضعنا واوا صغيرة وإن كانت الكسر وضعنا ياء صغيرة » .

فلما أذاع الخليل طريقته استقبلها الناس كعادتهم دائما عند استقبال كل جديد بوجوم بالغ ، وقالوا هذه بدعة وخروج عن ما ألف الناس ، وقد دافع الخليل عن طريقته حتى اقنع الكثير من مخالفيه . وكانوا قد خافوا على نص القرآن أن يتغير بهذه البدعة ...

• • •

ومضت فترة من الزمن ، فاذا الخليل يخرج على الناس بشىء جديد ...

ذلك أنه كان يسير فى السوق فسمع أصوات المطارق على الطشوت ...

هنالك اكتشف سر الموسيقى وأصلها . ولم يقف عند هذا ، بل قادة ذلك إلى وضع أصول علم العروض .

قال الخليل : أن هناك ثلاث نقرات : الأولى دقة وسكون (تن) والثانية دقتان وسكون (تتن) والثالثة ثلاث دقات وسكون (تتتن)وقال أن هذه النقرات إذا تتابعت وتدآخلت كونت الموسيقى ، وأن اختلاف تداخلها وتتابعها هو الذى يولد اختلاف النغمات .

ومضى الخليل يتصل بأهل الغناء وأستاذهم أبو رافع ، ومضى يعيش فى ألحانهم ويغشى مجالسهم ومعه لوح يكتب فيه رموزاً لا يفهمها أحد سواه .

ولم يلبث أن قال كلمته الخالدة « السكون فى الشعر هو السكون فى الموسيقى » .
وأدّاه ذلك إلى أن يصل إلى العروض . فقد كان الشعر العربى قبله لاضابط له، فمضى يحصر أصول الأنغام والتواقيع ، موقنا بأنه سيستطيع وضع مقاييس الشعر .

وكان فى خلال تأملاته تلك يعكف فى منزله على بئر، وقالوا أنهم كانوا يدخلون عليه الدار فلا يرون منه إلا قامته أما رأسه فقد أخفاها فى فوهه البئر ، ويسمعونه يخرج أقوالا لا معنى لها يكررها ويقتربون منه فيرون رأسه وقد تدلى فى البئر منفوش الشعر [1] .

فلما سئل فى ذلك قال : أن مقاطع الشعر تظهر واضحة فى الصدى الذى يحدثه البئر وانتقل بعد ذلك إلى مرحلة أخرى فى عمله هذا ، حيث رجع إلى أشعار العرب فأخذ يقطعها معتبرا الحرف الساكن آخر المقطع . وقابل بين القاطع ، وانتهى من ذلك بوضع أصول الشعر والنظم .

---

(١) يوسف العش — قصة عبقرى .

فلما أتم بحثه قصد إلى المسجد الجامع وعرضه على الناس : ذلك هو علم العروض الذى انهال الناس عليه لتعلمه فوقف نفسه على أفهامه للناس .

ومن قوله فى ذلك ان العرب قد استخدموا عن التفاعيل الثمان خمسة عشر بحراً مع أنها تعطى أكثر من ذلك حين تجمع وتركب . ومضى الخليل يركب بحوراً جديدة ويخرج بها شعراً من اوزان جديدة .

* * *

اما حياة الخليل فلم تكن صفوا كلها . كانت حياة فقيرة يملئها ورع عجيب . لا يقبل العطاء ولا يريد ان يكون خادما للملوك او الأمراء ، حتى قالوا «أنه اقام فى خص من اخصاص البصره لا يقدر على فلسين » واصحابه يكسبون بعلمه الأموال .

وآية خلقه انه رفض ان يكسب الشهرة على حساب مهاجمة القدامى من العلماء . وآية عقله انه امضى ثلاث سنوات يستمع فى حلقات العلم دون يشارك فى الجدل

يقول سفيان الثورى : من احب أن ينظر إلى رجل خلق من الذهب والمسك فلينظر إلى الخليل بن احمد .

كما وصفه ابو حاتم بقوله :

قد صاغه الله من تبر ومن ذهب   وصـــاغ راحته من عارض هطل

وقد كان سمح الوجه ، صافى الذهن ، عبقريا ، لا يعادى احداً ولا ينشى ، بل يتغاضى دائما . ويتسامى عن صغائر الأمور .

كانت ايه ذهنه اللماح : انه يحاول ان يستخرج من الظواهر اصولا تجمع فى قانون واحد وبلغ من ورعه وزهده وقناعته فيما فى ايدى الناس قوله : انى لاغلق على بابى فما يجاوره همى . رفض دعوة أمير الاهواز وفارس « الأمير سليمان بن حبيب المهلبى » الذى بعث إليه يهديه فى مائة ألف درهم ويدعوة إلى أن يقدم إليه فيلازمه وينادمه ويؤدب أولاده .

رفض الخليل الفقير الذى لم يكن فى بيته ثمر كسرة من الخبز هذا العرض وقال لرسول الأمير « ارايت هذه الـكسرة من الخبز ، انها زادى الوحيـد ، ولـكنها كافية لسد رمقى . وما دام عندى منها فلست بحاجه إلى سليمان . اما هذه الدراهم الـكثيرة فعند الأمير من الشعراء من هم بحاجة إليها » .

وكان لهذ التصرف اثره البعيد فى نفوس طلابه ، وتحدث به الناس فى البصرة، ولـكنه لم يكن لينظر إلى ذلك ، بل كان يربأ بنفسه أن يكون عبداً لأمير ويرفض أن يبيع علمه وعزته وعقله بالمال .

كانت نظرته إلى الحياة أعمق : ان لا يكون عبداً للمال . وكان يحتقر الظواهر ويمتهن التجمل ومن شعره قوله :

الرزق عن قدر لا الضعف بنقصه — ولا يزيدك فيه حـــول محتال

والفقر فى النفس لا فى المال تعرفه — ومثل ذاك الغنى فى النفس لا المال

ويقول : اكمل ما يكون الانسان عقلا وذهنا ، إذا بلغ ثلاثا وسـتين سنة واصفى ما يكون ذهن الانسان فى وقت السحر .

° * °

ولقد خرج الخليل فى أيامه الأخيرة من البصرة إلى خراسان ، بدعوة من تلميذه « الليث بن المظفر » أمير خراسان فشيعه ثلاثة آلاف رجل ساردا معه حتى بلغوا « المربد » فاوقفهم وخطب فيهم بما يشبه الاعتذار عن خروجه قال :

كانت هذه أيام سد فيها باب المعاش علىّ ، ونضرر الأهل والولد . وكثر اللوم فلم يثنى عن عزمى إلا دعوة رجل صالح عالم قصد أن يوفر لى الراحة فى الشيخوخة بأجر أتقاضاه على علمى فيسهل العيش على الأهل » .

وكان الليث المظفر كاتبا وعالما ، وقد تلقى الخليل بالحفاوة والتـكريم ، ولـكن الخليل كان مشغولا بحصر تراكيب اللغه وألفاظها فما عرف بعد بكتاب العين الذى

كتب مقدمته ومنهاجه وتركه لليث ، بعد أن قال له : **لقد شخت بابنى ولم يعد عندى** من الحيل والقوة » وأبدى استعداده لقراءه كل ما يحرره ، ويجيب على كل سؤال . وقد أهداه الخليل مذكراته وملاحظاته وتقييداته فى اللغة ليستفيد بها ... وقد حصر كتاب **العين لغة العرب** .

ثم لم يلبث أن هتف به هاتف الحج ، فسافر إلى مكة ، وقصد منها إلى البصرة التى استقبلته مكرمة اياه ... حيث اقام بقية أيامه .

وفى هذه الفترة التقى بتلميذه سيبويه ، الذى كان يكتب كل ما يقول والذى كثر تردده على مجلس الخليل حتى احبه وقال له عبارته الخالدة «مرحبا بزائر لايمل»

كان يسأل الخليل ويسأل ، ويكتب على الواحة ، وقد وجد فيه مالم يجد فى تلاميذه حتى قيل أن الأمر بلغ بينهما إلى حد أن كانا يتكلمان فلا يفهم أحد ما يقولان ، وقد جمع سيبويه أقوال أستاذه فى النحو وأخرج مصنفا دعاه «قرآن النحو»

ومن تلاميذ الخليل : الأصمعى والنضر بن شميل والليث بن المظفر وسيبويه .

ومن تصانيفه : العين فى اللغة ، العروض ، الشواهد ، النقط والشكل ، النغم .

وقد جاء ختام حياته متسقا مع طبيعته العالمة الحاذقة ، المندفعة إلى البحث إلى تجميع الأصول ؛ ذلك أنه رأى الجارية تخاصم البائع وهى تطالبه بدراهم أخذها منها بمغالطته أياها . فأراد أن يقرب نوعا من الحساب تمضى به الجارية إلى البائع فلا يمكنه ظلمها ، ودخل المسجد وهو يعمل فكرة فى ذلك فاصطدم رأسه بالسارية الضخمة فوقع وأحدث صوتا شديدا وانقلب على ظهره وتدحرج على الأرض مضرجا بالدماء . وكانت هذه نهاية الرأس ألمفكر الذى أخرج للناس علما وفكرا سيظل أثره باقيا ما بقيت العربية . فلما اجتمع الناس حوله قال لهم عبارته الأخيرة : لاتبكوا فوالله ما فعلت فعلا أخاف نفسى منه ...

وتوفى سنه ١٦٠ ه بعد أن عاش حياة خصبة عريضه .

الشخصيات